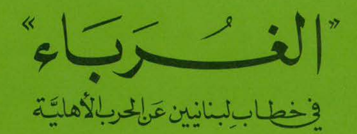
بحوث اجتماعية ٢٠





مارلين نصر



«الغُرَبَاء»

في خطاب لبنانيين عن الحرب الأهليّة

مارلين نصر



دار الساقي

الطبعة الأولى ١٩٩٦

ISBN 1 85516 506 6

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٦٠٢٣١٥ (٠١)

DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 0171-221 9347, Fax: 0171-229 7492

مقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى البحث عن صورة «الغرباء» ، في أحاديث عينة من اللبنانيين العاديين ، حول موضوع الحرب الأهلية في لبنان ، وتصورهم للمستقبل . إنها مساهمة في توضيح النظرة إلى «الآخر» ، المقيم في مجتمع متعدد الطوائف ، ذي اندماج وطني ـ قومي ضعيف ، كالعديد من «دول» العالم الثالث ، الناشئة بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعض الدول العربية الحديثة ، المتكونة بعد الحرب العالمية الأولى .

من أين أتت ، وكيف تكونت مقولة «الغرباء» ، كفاعل سياسي سلبي ، في الحرب الأهلية اللبنانية؟ هذا المفهوم لم يأت من الفراغ ؛ إذ كان ، ولا يزال مستخدماً في الأوساط الريفية والقروية اللبنانيَة ، للدلالة على الإنسان المجهول الأصل والهوية ، والعابر في بيئة يعرف أهلها بعضهم بعضاً ، وتربطهم علاقات قرابة أو جيرة قديمة وراسخة . وفي المرحلة الأولى من الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ ـ ١٩٨٣) ظهر هذا التعبير في خطاب وكتابات بعض الأوساط السياسية اللبنانية المحافظة ، وأخذ ينتشر في المدن والضواحي ، للإشارة إلى الجماعات المسلحة غير اللبنانية ، الفلسطينية والسورية وغيرها ، الناشطة سياسياً وعسكرياً في الحرب اللبنانية . والجدير بالإشارة أن هذه التسمية ، لم تكن تطلق سابقاً على السكان اللاجئين المقيمين في لبنان منذ عقود ، بل كانوا ينسبون إلى أقاليمهم التي لجأوا منها .

إن الدراسات حول «الآخر ـ الغريب» (Stranger) بهذا المعنى ، أي الآخر المقيم في المجتمع الأهلي ـ الوطني ، قليلة جداً في حقل الدراسات العربية

الاجتماعية السياسية ، ذلك أن اهتمام الباحثين ، في هذا الميدان ، إنصب على صورة «الأنا» كآخر ، أي صورة العرب أو المسلمين في الخارج ، ولا سيما في الدول الغربية (في الصحافة والكتابات الاستشراقية والأدب الاستعماري ، والكتب المدرسية والبرامج التليفزيونية . . . إلخ) .

أما النظرة إلى مواطني بلد عربي آخر ، المقيمين في بلد «مضيف» ، فقلّما تناولتها الدراسات العربية ، ولا سيما تلك الدراسات التي اهتمت بأوضاع اللاجئين الفلسطينيين أو العمال الوافدين ، من مصريين وسوريين ولبنانيين وفلسطينيين ويمنيين ، في الدول النفطية . فقد عولجت أوضاعهم من الناحية الاقتصادية والديموغرافية والاجتماعية والسكنية . ولكن لم يهتم الباحثون بدراسة النظرة إليهم من قبل السكان «المواطنين» ، لا في حالات الأزمات الاجتماعية أو السياسية الكبرى ، كحرب الخليج أو الحرب الأهلية اللبنانية ، ولا في حالات السلم الاجتماعي . وقد أكد هذا الاتجاه المؤتمر الدولي ، الذي نظمته ، في تونس ، الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، حول «صورة الآخر» (آذار/ مارس ١٩٩٣) . إذ إن معظم الأبحاث ، التي قدمها المشاركون من الدول العربية ؛ ومنهم كاتبة هذه السطور ، إنصبت حول صورة العرب والإسلام في الغرب ، أو النظرة المتبادلة بين الحضارتين الغربية والإسلامية .

إن عدم الخوض في الموضوع الذي يهمنا ، أي النظرة إلى «الآخر» المسمى بالغريب ، والمقيم في الداخل ، قد تنبع من عقلية إيجابية منفتحة ، لا تزال موجودة في المجتمعات العربية ، وهي تعود إلى تقاليد «الضيافة» في معاملة «الآخر» ، ولا سيما «الآخر» القريب ، من حيث اللغة وأحياناً الدين ، وهي شبيهة بمعاملة «الأخ» لأخيه ، أو على الأقل معاملته كالضيف ، إلى حين اندماجه في المجتمع المضيف ، أو رحيله عنه . ولكن ماذا يحصل عندما تتوقف عملية الاندماج هذه «الطبيعية» لجماعات متماثلة ، من حيث اللغة أو الدين ، في المجتمع «المضيف» ، كما حصل لجماعات اللاجئين الفلسطينيين والأكراد

وغيرهم ، أو لجماعات العمال العرب الوافدين إلى الدول النفطية ، أو المقيمين فيها لعقود طويلة؟ ماذا يحصل عندما تبطىء أو تقف عملية الاندماج بفعل القوانين الموضوعة ، التي ترمي إلى حماية مصالح مواطني البلد ، أو عدم الإخلال بالتوازن الداخلي ، الطبقي أو الطائفي أو الوطني أو القومي؟ كيف ينظر «المواطنون» الأصليون إلى «الضيوف» الدائمين ، ولا سيما في حالة الأزمات الاجتماعية والسياسية؟

لقد قمت بدراسة هذه الظاهرة في حالة أزمة ، حالة الحرب الأهلية اللبنانية حيث تأزمت ، واختلّت العلاقات بين الجماعات اللبنانية المتنوعة والجماعات غير اللبنانية ، المقيمة في لبنان ، والمؤثرة في مجرى هذه الحرب ، عندما ظهرت ، في بعض الصحف والإذاعات ، وعلى لسان جماعات واسعة من السكان من مختلف الانتماءات ، تسمية «الغرباء» ، التي أطلقت على جماعات أخرى ، لم تحدد هويتها . لقد حاولت في هذه الدراسة ، المحدودة النطاق ، والمحصورة حول صورة «الآخر» في الحرب الأهلية اللبنانية ، البحث في التصور والنظرة إلى «الغرباء» ، ومعاني هذا التعبير ووظائفه ، بالنسبة إلى مطلقيه ، جماعة المتكلمين ، الذين يطلقون على أنفسهم «نحن المواطنين» ولن يتعدى هذا البحث مستوى الخطاب ، أي كلام المتحدثين المحقق معهم ، ومواقفهم المعلنة . أما التصرفات حيال هذا «الآخر» فهي من اختصاص مؤرخي الحرب الأهلية اللبنانية . وجرى البحث عن صورة «الغرباء» في أحاديث عينة من اللبنانيين العاديين ، تكلموا على موضوع الحرب الأهلية وأسبابها ، وتصورهم للمستقبل . وقد لجأ بعض المتكلمين إلى استخدام لفظة «غرباء» بشكل عفوي ، دون أن يوجه إليهم سؤال أو إشارة حول هذا الموضوع ، في حين لم يظهر هذا التعبير في كلام البعض الآخر من المحقق معهم .

I. المحقق معهم، من حيث توزيعهم الطائفي والمهني والاجتماعي والسكني والسن

إعتمدت ، لدراسة صورة «الغرباء» في الخطاب اللبناني ، على ١٤٨ مقابلة ، من الحجم المتوسط (٢٥٠٠ كلمة) ، أجراها فريق من المحققين الاجتماعيين مع لبنانيين عاديين ، تم اختيارهم على أساس توزيعهم الطائفي والاجتماعي ـ المهني ، وأصلهم الجغرافي وأماكن إقامتهم ، وسنهم ، بحيث كانت عينة المحقق معهم ممثلة ، قدر الإمكان ، لتوزيع مجمل اللبنانيين ، حسب المتغيرات الخمسة المذكورة أعلاه . وقد أجريت المقابلات في أواخر العام ١٩٨٢ وبداية ١٩٨٣ ، في ظرف زمني ، وقع بعد الاجتياح الإسرائيلي (حزيران ١٩٨٢) ورحيل المقاومة الفلسطينية عن لبنان ، واستمرار الاحتلال الإسرائيلي للشوف وصيدا والجنوب ، وبعد انتخاب أمين الجميل رئيساً للجمهورية اللبنانية . ويمكن اعتبار هذه الفترة الزمنية ، واقعة بين نهاية المرحلة الأولى من الحرب اللبنانية ١٩٧٥ ـ ١٩٨٢ ، وبداية المرحلة الثانية ، الأكثر «داخلية» ؛ إذا صح التعبير ، والتي ابتدأت بعد شباط ١٩٨٣ . وقد روعي ، في اختيار المحققين الاجتماعيين ، عامل التجانس الديني مع المحقق معهم ، للحد من تأثير هوية المحقق في حرية كلام المحقق معهم عن الحرب الأهلية .

وشمل التوزيع الطائفي لأفراد العينة سبع طوائف (سنية ، شيعية ، مارونية ، درزية ، روم كاثوليك ، روم أرثوذكس وأرمن) . وطال توزيعهم المهني القطاعات الزراعية والصناعية والخدمات والقطاعين ، العام والخاص ، وحسب المستويات الاجتماعية ، العليا والوسطى والدنيا . وتم اختيار أفراد العينة من المناطق المدينية والريفية والضاحوية ، وفي المحافظات الخمس في

لبنان[1] . وتراوحت أعمارهم بين العشرين والسبعين سنة ، وفقاً لهرمية أعمار السكان في لبنان .

ويظهر توزيع أفراد العينة حسب المتغيرات الخمسة في الجدول الرقم (١) ـ أ .

وقد تم توجيه المقابلة حسب ثمانية مواضيع رئيسية عامة ، تناولت أسباب الحرب الأهلية اللبنانية ، والميل إلى تفضيل الانتماء الطائفي أو الوطني اللبناني ، ومدى وعي التوزيع الطبقي في لبنان ، مدى الاحتماء بالعائلة أو الطائفة في ظروف الحرب الأهلية ، وأفضل الحلول لإعادة بناء الدولة في لبنان ، والنظام الاقتصادي ـ الاجتماعي ـ التربوي المفضل للبنان الغد وعلاقاته الخارجية ، والتجربة الشخصية أثناء الحرب الأهلية . والجدير بالذكر أن موضوع «الغرباء» في الحرب الأهلية ، لم يثر في الأسئلة للمواضيع المطروحة من قبل المحققين الاجتماعيين على أفراد العينة ، وإنما برز عفوياً في حديث بعض هؤلاء . وأنا لا أعالج ، في هذا البحث ، سوى هذا الجانب من المقابلات ، تاركة لدراسة أخرى معالجة المواضيع الواردة في التحقيق الميداني .

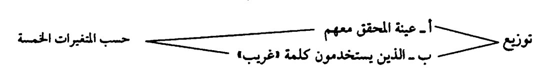
وبسبب انعدام الدراسات العربية ، حول صورة «الغرباء» ، أو الوافدين في مجتمعات عربية أخرى ، يندرج هذا التصور لـ «الغرباء» في إطار التمثل الوطني (national) : صورة الذات الوطنية أو القومية (من قوم) نسبة إلى صورة «الغير» ، «الآخر» .

وقمنا ، على هذا المستوى ، بمقارنة تمثل «الغرباء» في لبنان بتمثلهم في مجتمعات أخرى ، للتوصل إلى ما هو خاص بلبنان ، وما هو عام أو مشترك بين عدد من المجتمعات ، فيما يتعلق بصورة «الآخر» ، غير المواطن . فاستعنا ببعض الدراسات العربية ، القليلة جداً حول الموضوع ، على الرغم من كثرة تواجد «الأجانب» في عدد من المجتمعات العربية النفطية . وهذا النقص ،

تقابله وفرة في الدراسات عن تمثل «الغرباء» والمهاجرين في المجتمعات الغربية ، ولا سيما الأوروبية منها ، فلجأنا إليها ، لتحديد نقاط الاختلاف والتشابه .

وقد ساعدتنا الدراسات الأنثروبولوجية ، حول «الغرباء» أو «الأجانب» في مجتمعات حوض البحر المتوسط ، ومنها العربية ، وفي المجتمع اليوناني القديم[٢] ، على توفير عمق زمني لمفهوم «الغريب» ، وكشف جذور النظرة إلى «الغرباء» والسلوك تجاههم ، وتحديد مرتبتهم ، بالنسبة إلى «الضيف» وابن العشيرة (عضو الجماعة) ، وجعلتنا نتساءل إذا كانت النظرة إلى «الغرباء» ، الآن ، وفي مجتمعنا ، تعيد إنتاج بعض عناصر النظرة ، التي كانت سائدة في «المجتمعات» ما قبل الرأسمالية .

جدول رقم (١)



		(أ) %	(ب) %
الطائفة	موارنة	٣٢	٤٦
	شيعة	٢٧	٤١
	سنة	١٤	٤٣
	روم كاثوليك	١١	٣٢
	روم أرثوذكس	١٠	٠
	أرمن	٢, ٥	٥٠
	دروز	٣, ٥	٢٠
	المجموع	١٠٠	٣٨
السن	من ٢٠ إلى ٣٠ سنة	٢٢	٣٤
	من ٣٠ إلى ٤٠ سنة	٢٩	٢٧
	من ٤٠ إلى ٥٠ سنة	٢٢	٤٤
	من ٥٠ إلى ٦٠ سنة	١٦	٥٦
	من ٦٠ إلى ٧٠ سنة	١٠	٥٧
	المجموع	١٠٠	٣٨

المحقق معهم من حيث توزيعهم

تابع جدول رقم (١)

		(أ) ٪	(ب) ٪
القطاع المهني	قطاع عام	٢٤	٢١
	خدمات	٥٢	٤٠
	صناعيون	١٤	٤٥
	حرفيون		٧٠
	زراعة	١٠	٤٣
	المجموع	١٠٠	٣٨
المستوى الاقتصادي والاجتماعي	عالٍ	١٥	٩
	متوسط	٤٢	٤٧
	متدنٍ	٤٣	٤٩
الأصل	المجموع	١٠٠	٣٨
	مديني	٣٣, ٦	٤٥
	ضاحوي	٥, ٥	٣٧
	ريفي	٦١	٣٥
	المجموع	١٠٠	٣٨

تابع جدول رقم (١)

		(أ) ٪	(ب) ٪
الإقامة	مديني	٤٦, ٦	٣١
	قديم		٣٢
	حديث		٢٩
	ضاحوي	٣٥, ٦	٥٤
	قديم		٥٩
	حديث		٣٨
	ريفي	١٨	٢٧
	المجموع	١٠٠	٣٨
عينة المحقق معهم		العدد	النسبة ٪
	المجموع	١٤٨	١٠٠
	مستخدمو كلمة «غريب»	٥٦	٣٨
	غير مستخدمي كلمة «غريب»	٩٢	٦٢

أما على المستوى المجتمعي ، فقد اكتفيت ، في إطار هذه الدراسة ، بالبحث في العلاقة بين الخطاب عن «الغرباء» وظروف إنتاجه (conditions de production) ، وهي محددات المتكلمين الاجتماعية والمهنية والظرف التاريخي ، الذي تكلموا فيه ، وموقعهم السكني والجغرافي ، وأصولهم الريفية أو المدينية وانتماؤهم الديني ، والجيل الذي ينتمون إليه . وقد درسنا التقاطع بين ظروف إنتاج الخطاب ، الخاصة بالمتكلمين ، ومضمون خطابهم عن «الغرباء» .

واتبعت أسلوبين في التحليل : الأول كمي إحصائي ، لمعرفة من يتكلم على «الغرباء» ، أحدد فيه نسبة الذين يتكلمون (locuteurs) على «الغرباء» في حديثهم عن الحرب الأهلية ، مقارنة بالذين لا يذكرونهم ، وتوزيع هؤلاء المتكلمين العددي وفقاً لانتماءاتهم الطائفية والاجتماعية والمهنية والجغرافية والسكنية ، وفئة السن . والأسلوب الثاني ألسُني ، خاص بتحليل خطابهم حول «الغرباء» ، الجانب الأول منه مستمد من علم المفردات (lexicologie) ، يقوم على تحليل حقول دلالة كلمة «غريب» ، «غرباء» في الخطاب المذكور ، أي تحليل السياق الذي تظهر فيه الكلمة في كل استخداماتها ، وفقاً لفئات دلالية (sémantiques) ، يمكن توزيعها إلى مواصفات ومشاركات ومناقضات وأفعال[٣] ، والجانب الثاني منه ، يصف أساليب البرهنة (argumentation) ، والخطابة (rhétorique) الداعمة لمقولاتهم حول «الغرباء» .

نتوقف قليلاً ، قبل البدء بتحليل الخطاب ، عند معنى لفظة «غريب» في اللغة العربية . يفيدنا المنجد بمعنيين لكلمة «غريب» ، المعنى الأول مشتق من «غرب ، أي ذهب أو بعد» ، ومنها «غرابة وغرباً» ، و«تغرب» أي نزح عن الوطن ، فالغريب هو البعيد عن وطنه ، والرجل الغريب هو الذي ليس من القوم . والمعنى الثاني للفظة «غريب» ، حسب المنجد ، مشتق من «غَرُب» (بضم الراء) «غرب عن الشيء» ، أي «كان غير مألوف» ، ومنه «استغرب» ، و«الغريب» جمع غرباء ، هو «العجيب غير المألوف» .

وإذا نظرنا إلى كلمة «أجنبي» ، وجدنا أن المُنجد يعطيها معنى ، ليس ببعيد عن معنى كلمة «غريب» ، إذ تشتق من «جنب جنباً ، أي دفعه ونحّاه وأبعده» ، و«الجنُب ، أي البعيد» ، «وجنّب الشيء ، أي أبعده عنه» ، «والجار الجنُب» هو «الجار من غير قومك ، أو البعيد» . ويضيف المنجد «والأجنبي هو الغريب» .

وفي الحالتين ، إن «البعد» هي الدلالة المشتركة بين اللفظتين ، و«عدم الانتماء إلى القوم» . فتبدو اللفظتان مترادفتين ، في اللغة العربية ، إذا اعتبرنا أن المُنجد يُعبر جيداً عن المعاني اللغوية للألفاظ .

ولكن ماذا بالنسبة إلى خطاب المتكلمين ، الذي نحلله في هذه الدراسة ، حيث وردت ، تكراراً ، كلمتا «غريب» و«أجنبي» ، هل معانيهما هي المعاني نفسها ، التي يتقدم بها المعجم؟

لقد أخضعنا هذه المقابلات لتحليل تفصيلي . ونحاول ، في هذه الدراسة ، الإجابة عن الأسئلة التالية :

- هل هناك خطاب لبناني واحد مشترك عن «الغرباء»؟ أم أن هناك خطابات عديدة تختلف باختلاف انتماءات المتكلمين ، الطائفية و الاجتماعية ، المهنية والسكنية؟ وما هي ميزات هذا الخطاب؟

- هل لفظة «غرباء» لفظة حديثة ، برزت أثناء الحرب الأهلية اللبنانية؟ أم أنها قديمة مستجدة؟

- ما هي العلاقة بين «الغريب» واللبناني «المواطن» ، في الخطاب عن «الغرباء»؟

- ما هي أشكال وأنواع الخطاب عن «الغرباء»؟

- ما مدى تأثر هذا الخطاب بانتماء المتكلم الطائفي ، وموقعه المهني الاجتماعي والسكني الجغرافي؟

II. من يتكلم على «الغرباء» في الخطاب اللبناني عن الحرب الأهلية؟

إنتشر الكلام على دور «الغرباء» في الحرب اللبنانية ، في بعض الصحف والإذاعات ، عبر تصريحات بعض القيادات السياسية ، في المرحلة الأولى (١٩٧٥ ـ ١٩٨٢) من الحرب ، أي قبل الاجتياح الإسرائيلي ، وانسحاب المقاومة الفلسطينية من لبنان . وقد ظهر في التحقيق الميداني ، أن ٣٨٪ فقط من المتكلمين ، يذكرون «الغريب» أو «الغرباء» عفوياً في سياق كلامهم على الحرب الأهلية ، في حين أن غالبية المحقق معهم ٦٢٪ ، لا يستخدمون أبداً هذه اللفظة أو أي لفظة أخرى قريبة لها «كالأجانب» مثلاً .

إن حجم العينة ، المحدودة نسبياً (١٤٨ محققاً معه) ، لا يسمح بالتعميم ، وإنما يمكن القول بأن غالبية اللبنانيين ، لا تطرح ، بالضرورة ، موضوع «الغرباء» عندما تتكلم على الأوضاع اللبنانية والحرب الدائرة .

ولكن ، ما هو تأثير انتماءات المتكلمين (الاجتماعية والطائفية والمهنية وموقعهم الجغرافي) في نسبة مستخدمي لفظة «غرباء» في كلامهم على الحرب و«الأوضاع» اللبنانية؟

توزيع طائفي شبه متساو : باستثناء الطوائف الصغيرة

يتبين من قراءة الجدول الرقم (١) ب ، أن توزيع مستخدمي لفظتي «غريب» «غرباء» ، شبه متساو ، بين المحقّق معهم من الطوائف الثلاث الرئيسية ، إذ بلغ ٤٦٪ لدى المتكّلمين من الطائفة المارونية ، و٤٣٪ لدى السنّة ، و٤١٪ لدى الشيعة . إن هذه النسب المتقاربة ، تدحض الانطباع

السائد لدى البعض ، أن مقولة «الغرباء» هي أكثر انتشاراً لدى الموارنة ، بسبب انغلاقهم النسبي دون المحيط العربي ، وحذرهم من الهيمنة ، وخوفهم من الابتلاع الإقليمي . وبالعكس ، فإنها شبه غائبة لدى السُّنة ، لأسباب معاكسة ، كانفتاحهم التاريخي على المنطقة العربية . إن نتائج التحقيق الميداني ، تثبت عكس هذا الاعتقاد .

وقد برز ، لدى فرز النتائج ، ظاهرة لا بد من التوقف عندها ، هي الغياب التام لاستخدام كلمتي «الغرباء» و «الغريب» ، من قبل المتكلمين المنتمين إلى طائفة الروم الأرثوذكس . وقد أعدنا النظر في توزيعهم وطرق اختيارهم ، لدى تكوين العينة ، واتجاهاتهم السياسية (بعد قراءة متقنة لمحتوى المقابلات معهم) ، وتبين لي أن ليس هناك خلل (biais) في اختيار العينة ، وأنهم موزعون على كافة المناطق ، التي يسكن فيها ، عادة ، أفراد هذه الطائفة ، وهم من كافة الاتجاهات السياسية ، ويعملون في مختلف المهن .

قد يعود ، إذاً ، هذا الامتناع إلى عوامل تاريخية سياسية ثقافية ، خاصة بوضع طائفة الروم الأرثوذكس في لبنان والمشرق العربي[٤] .

إزدياد العدد مع ارتفاع السن

هل توجد علاقة بين سن المحقق معهم ونسبة الذين يذكرون «الغرباء» ، في كلامهم على الحرب الأهلية والأوضاع اللبنانية؟ إنها علاقة تصاعدية ، إذ يشير الجدول الرقم (١) ب ، إلى أن نسبة مستخدمي لفظة «غريب» ، تتصاعد بتصاعد سن المتكلمين[٥] . فجيل ما قبل الحرب ، أي المتكلمون الذين تتراوح أعمارهم بين ٣٠ و٤٠ سنة ، هم أقل استخداماً للفظة «غريب» أو «غرباء» (٢٧٪ من مجمل المحقّق معهم ، الذين ينتمون إلى هذه الفئة) . أما جيل الاستقلال ، أي الذين تتراوح أعمارهم بين ٤٠ و٥٠ سنة ، فهم أعلى نسبة في التكلم على «الغرباء» (٤٤٪) . وتتصاعد هذه النسبة ، لتبلغ ٥٦٪ و٥٧٪ ،

فيما يتعلق بأجيال ما قبل الاستقلال (من ٥٠ إلى ٧٠ سنة) . أما الجيل الشاب ، الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٠ و٣٠ سنة ، وهم جيل الحرب الأهلية ، فإنهم يشكلون الاستثناء الوحيد من هذا الاتجاه التصاعدي . فنسبة الذين يذكرون «الغرباء» بينهم ، أكبر (٣٤٪) من نسبتهم في الجيل السابق لهم ، جيل ما قبل الحرب الأهلية ، إذ يبدو أنهم تأثروا أكثر بأيديولوجية الحرب الأهلية من أسلافهم المباشرين ، الذين عاشوا في لبنان ما بعد الاستقلال ، لبنان الاختلاط الطائفي والانفتاح على الخارج ، الإقليمي والدولي .

ويظهر أيضاً ، من قراءة الجدول ، أن الوضع المهني والتوزيع القطاعي للمحقق معهم قليلا التأثير في نسب الذين يستخدمون لفظة «غريب» ، في كلامهم على الحرب الأهلية . فلدى فئتي الحرفيين والصناعيين تبدو النسبة مرتفعة جداً (٧٠٪ من مجمل حرفيي العينة) . وفئة موظفي القطاع العام ، كانت الفئة ذات النسبة الأدنى (٢١٪ من مجمل موظفي هذا القطاع في العينة) . أما فيما يتعلق بالمستوى الاجتماعي ـ الاقتصادي ، فيظهر توزيع ثنائي قاطع ، بين فئة الأغنياء ، الأقل استخداماً لكلمة «غرباء» (٩٪) ، وفئة متوسطي وفقراء الحال ، حيث ترتفع النسبة إلى ٤٧ و٤٩٪ على التوالي ، إذ يبدو أن خشية «الغريب» والشعور بالعداء نحوه ، أكثر انتشاراً في الأوساط اللبنانية المتوسطة والفقيرة منها بين الأغنياء أو الموسرين[٦] .

الضاحويون القدامى أكثر من المدينيين القدامى

أما إذا أخذنا في عين الاعتبار مكان إقامة المحقق معهم ، تبين لنا أن معظم الذين يتكلمون على «الغرباء» ، يقيمون في ضواحي المدن ، وفي ضواحي بيروت بصورة خاصة . ويجب الإشارة إلى أن المخيمات الفلسطينية موجودة ، أيضاً ، في ضواحي المدن اللبنانية ، أو على مقربة منها ، وأن العمال السوريين

والمصريين ، يسكنون ، أيضاً ، فيها . إن التدرج ليس بمستقيم : فالنسبة مرتفعة جداً لدى المحقق معهم ، الذين يقيمون في الضاحية منذ أكثر من ٢٥ سنة ، فتبلغ ٦٠٪ من المحقق معهم من هذه الفئة . تهبط إلى ٣٨٪ بين المحقق معهم ، المقيمين حديثاً في الضاحية ، أي منذ أقل من ٢٥ سنة . ويتبعهم المتكلمون ، المقيمون في المدن ، وفي بيروت خاصة (٣٠٪) القريبة جداً من نسبة المتكلمين ، المقيمين في المناطق الريفية (٢٧٪) . يبدو ، إذاً ، أن هذه النسب ، ترتفع بازدياد قرب المتكلمين السكني ممن يسمونهم «الغرباء» في العينة ، وقدَم هذه الجيرة في ضواحي المدن ، وفي ضاحية بيروت بصورة خاصةَ . وبالعكس ، فإن المتكلمين ، المقيمين في الضاحية منذ أقل من ٢٥ سنة ، أقرب ، من حيث النسبة (٣٨٪) ، إلى القاطنين في المناطق الريفية (٢٧٪) ، لأن أصلهم الريفي ، ليس ببعيد . وهم كذلك أقرب إلى سكان المدن (٣٠٪) ، من حيث استخدام أو عدم استخدام مقولة «الغرباء» في كلامهم على الحرب الأهلية .

إن الأصل الجغرافي للمتكلمين (من الريف أو من المدينة) أقل تأثيراً من الجيرة في نسبة الذين يذكرون «الغرباء» . إن الأصل المديني ، يبدو أكثر تأثيراً (٤٥٪) من الأصل الريفي (٣٤٪) . هذا لا يعني أن الريفيين أكثر انفتاحاً على «الغرباء» من سكان المدن ، وإنما قد يعني أن الخوف من «الغرباء» ونبذهم ، لا يظهر في الكلام ، إلا بعد التجربة المعيشية الملموسة مع المدعوِّين «غرباء» .

هل الخطاب حول «الغرباء» مشترك بين اللبنانيين؟ أم أنه يوجد عدد من الخطابات ، التي تختلف باختلاف الانتماء الطائفي ، أو الأصل الجغرافي ، أو السن ، أو المستوى الاجتماعي للمتكلمين؟ هل التباين بين نسب المتكلمين على «الغرباء» ، حسب المتغيرات الخمسة ، يعود ليظهر عند تحليل محتوى خطابهم؟ إن الانقسام الطائفي ، الذي أبرزته الحرب الأهلية في المجتمع اللبناني ، قد يدفع الباحث إلى تبني ، سلفاً وقبل التدقيق ، تمايز في الخطاب ،

والافتراض بأن هناك خطاباً مارونياً عن «الغرباء» ، وآخر شيعياً ، وآخر سنّياً . إن توزع المقابلات بين الطوائف الثلاث الرئيسية[٧] ، قد يسمح بمعالجة «طائفية» (أي كل طائفة على حدة) للنظرة إلى «الغرباء» ، والتشديد على نقاط الاختلاف بينها ، إلا أننا لم نحذ هذا الحذو . كذلك إن إمكانية توزيع المقابلات بين الفئات الاجتماعية الطبقية الثلاث (طبقة عليا ، وسطى وفقيرة) والفئات المهنية المختلفة (عمال صناعة أصحاب مصانع ، عمال زراعة ومزارعين ملاكين وتجار صغار ومتوسطين وأغنياء وموظفين من كل المستويات ، ومهن حرة) هذه الإمكانيات ، قد تسمح ، أيضاً ، بقراءة اجتماعية طبقية للخطاب حول «الغرباء» ، أو خلدونية (ريف ، مدينة ، ضاحية ، إذا أخذنا بمكان الإقامة والأصل الجغرافي) أو جيلية (إذا أخذنا في عين الاعتبار توزيع المقابلات المتكافئ بين فئات العمر) .

ولكي نتجنب تفضيل هذا العامل على ذاك ، والانجرار وراء الظرف التاريخي ، الذي نعيشه ، والذي يعزز ، بدون شك ، الأخذ في عين الاعتبار عامل الانقسام الطائفي ـ الديني ، لجأنا إلى طريقة أخرى استنتاجية ، نلخصها بما يلي :

بعد مقارنة حقول دلالة كلمتي «غريب ، غرباء» في المقابلات كافة (٥٦) ، وإقامة جداول مقارنة ، حسب الطائفة ، ثم المهنة والمستوى الاجتماعي ، ثم الإقامة والأصل ، ثم السن ، ثم مقارنة كل حقول دلالة الكلمتين ، بغض النظر عن المتغيرات ، تبين لنا أن القواسم المشتركة بين حقول دلالة كلمة «غرباء» ، تفوق بكثير الفوارق المقترنة باختلاف المتغيرات .

ويثبت الجدول الرقم (٢) هذه النتيجة . هذا ما جعلنا نعتبر أن هناك خطاباً لبنانياً مشتركاً عن «الغرباء» ، موجود في مختلف الأوساط الطائفية والاجتماعية والجغرافية (III) ، وإنما هذا الخطاب اللبناني يتنوع ، أو يتمايز (ولا نقول يتعدّد) بتنوع الانتماءات الطائفية والمواقع الاجتماعية المهنية والجغرافية السكنية (VI) .

جدول رقم (٢)
الحقل المشترك والمتغيرات في الخطاب اللبناني حول «الغريب»

		العناصر المشتركة		العناصر الخاصة	
الطائفة	موارنة		٤٣	٪٣٩	٢٧
	شيعة	٪٦٣	٣٦	٪٣٢	١٧
	سنة		٢٣	٪٤٠	١٥
الإقامة	مدينية		٢٧	٪٣٤	١٤
	ضاحوية	٪٦٥	٣٣	٪٣١	١٥
	ريفية		١٨	٪٤٠	١٢
الأصل	مديني	٪٦٥	٣٣	٪٣٣	١٦
	ريفي		٢٤	٪٣٧	١٤
المهنة	متوسطو وصغار				
	التجار		٢٦	٪٣٥	١٤
	حرفيون		٢٢	٪٣٥	١٢
	مزارعون	٪٧٠	٢٠	٪٣٦	١١
	صناعيون		٢٨	٪٢٢	٦
	موظفو خدمات		٢٦	٪٢١	٧

III. الخطاب اللبناني المشترك عن «الغرباء» في الحرب الأهلية اللبنانية

يتمحور الخطاب اللبناني المشترك عن «الغرباء»[٨] حول الثنائي المتناقض (couple antinomique) ، «الغريب» مقابل «المواطن اللبناني» ، أو «الغرباء» مقابل «المواطنين اللبنانيين» . فعندما يتطرق المحقَّق معهم إلى موضوع «الغرباء» ، يتكلمون باسم المواطنين اللبنانيين ، في معظم الحالات ، ويستعملون صيغة «النحن» (اللبنانيين) في مواجهة «هم» «الغرباء» (غير اللبنانيين) . والتلاصق شديد ، في هذا المضمار ، بين المتكلم وموضوع خطابه . والسؤال هو ، ماذا يقولون عن «الغرباء»؟ هل «الغرباء» شيء واحد؟ أم يوجد أنواع من «الغرباء»؟ ما هي الاتهامات الموجهة إليهم؟ كيف يدعون اللبنانيين أو غيرهم للتصدي لهم؟ هل يتميّز الخطاب عن «الغرباء» بأشكال خطابية تضفي عليه طابعاً خاصاً؟ هل مستوى العدائية أو التناقض هو نفسه؟ أم أن هناك درجات في نمط العلاقة؟

أولاً : مضمون الخطاب المشترك عن «الغرباء»

كيف ينظر المتكلمون (المحقَّق معهم) إلى طرفي الثنائي المتناقض ، الغرباء × المواطنين؟

من هم «الغرباء»؟ وما هي الاتهامات الموجهة ضدهم؟

الترجح بين معانٍ قديمة ما قبل وطنية ، ومعنى حديث لـ «الغرباء» .

يتبين من تحليل حقول دلالة «الغرباء» ، في مجموعة المقابلات (وخاصة شبكة مواصفات «الغريب» والمعاكسات) أن المعنى الطاغي هو «الغريب»

بالمعنى الحديث، أي غير المواطن أو غير اللبناني. ولكن، إلى جنب هذا المعنى الحديث، تبرز في الخطاب[9] معان أخرى لـ «الغرباء» قديمة أو ما قبل وطنية، قد تفيد، على الرغم من ندرتها، في معرفة أصول الكلمة وتعدد معانيها (polysémie)، وتطورها. تبرز معاني «الغريب» الأكثر قدماً، مبينة انعدام صلة الدم أو الجيرة. ويعبر الخطاب عن صلة الدم بكلمتي: «عائلة» و«أصل»، وعن صلة الجيرة بكلمات: «بيئة» «مطرح» و«بلد»، في المقولات التالية:

«لازم الإنسان يرجع لبيئتو، لأصلو، منشان يكون هوي، إذا طلع من عيلتو أو من مطرحو، بدو يكون غريب عن وطنو».

«لمن ملازم غريب عن البلد (الهرمل) كان يطلع، كانوا يقتلوه».

ويتبين من هذه الأمثلة، أن «الغريب» لا معنى له بحد ذاته، وإنما يكتسب معناه، بالنسبة إلى الآخرين، من طريق الإقصاء (exclusion)، أي الاستبعاد أو الاستثناء. فـ «الغريب»، بالمعنى القديم، هو الذي يخرج عن صلة القرابة، قرابة الدم، أو يخرج عن صلة الجيرة، أو القرب بمعنى وحدة السكن. وهذا الخروج عن الصلتين، يطال أيضاً عضو الجماعة: فإذا خرجت أنا عن جماعتي، أصبحت غريباً. كما يطال الآخر: إذا جاء أحدهم إلى جماعة، لا علاقة له بها، من حيث قرابة الدم أو الجيرة، فهو أيضاً غريب في نظر أعضائها.

وتفيد الدراسات الأنثروبولوجية، أن الوحدات الاجتماعية الأكثر بدائية، في الماضي كما في الحاضر، تنظر إلى الآخرين، غير المنتمين إليها، بمثابة «غرباء»، حتى لو كانوا من الجيرة القريبة[10]. فالغريب، بمعنى الخارج عن صلة الدم، يبدو أقدم من المعنى التالي، أي الغريب، بمعنى الخارج عن صلة الجيرة، وكلمتا «مطرح» و«بيئة» في الخطاب، تعبران عن الوحدة السكنية، بمعناها العام[11].

وتؤكد أيضاً ، بعض الدراسات عن العنصرية على هذا المعنى القديم لـ «الغريب» ؛ إذ تفيد أن العنصرية البدائية ، المعروفة بالنفور من «الآخر» (hét-érophobie) هي ظاهرة نفسية اجتماعية عامة جداً ، وربما عالمية ، تعود جذورها إلى الكره الفطري ، الذي يكنه رجل العشيرة (clan) تجاه القريب أو البعيد ، المختلف عنه ، والأضعف منه[١٢] .

لم تهتم الدراسات الأنثروبولوجية ، عن القرى العربية ، بنظرة أبناء القرية أو العشيرة إلى «الغرباء» ، لأنها اتخذت منحى دراسياً مجزّءاً للوحدات الاجتماعية البدائية (العشيرة ، القبيلة ، القرية) ؛ إذ عالجتها بشكل منفصل (microsociologique) ، دون التركيز على العلاقات فيما بينها . لذا ، لا تحتل العلاقة بين الجماعة و«الغرباء» مكانة خاصة ، في هذه الدراسات ، إلا إذا أصبح هؤلاء «الغرباء» مقبولين لدى الجماعة ، واحتلوا مكانة «الضيوف» . فالدراسات الأنثروبولوجية ، تعج بدراسة ظاهرة الضيف والضيافة ، عند العرب ، وهي عكس ظاهرة «الغريب» و«الغرابة» . وقد خصص العالم الأنثروبولوجي Pitt-Rivers فصلاً كاملاً ، من كتابه «*أنثروبولوجيا الشرف*»[١٣] ، لتحليل قانون الضيافة في مجتمعات البحر المتوسط ، ومنها المجتمع العربي ، وقارن بين مكانة الضيف ، و«الغريب» ، وعضو الجماعة ، في هذه المجتمعات ، فرأى أن وضع الضيف ، يقع بين وضعي «الغريب» المعادي وعضو الجماعة . وتعتبر الضيافة ، في العالم العربي ، بمثابة واجب مقدس . فـ «الغريب» مصدر خطر ، ولتفادي هذا الخطر ، الممثل فيه ، يجب إما إبعاده وطرده ، وإما استقباله وتكييفه مع حياة الجماعة . فيتحول من «غريب» إلى ضيف ، من رجل منبوذ إلى رجل مكرّم ومقبول . إلا أن الغرابة ، حسب Pitt-Rivers ، إن كانت تؤدي إلى الحذر وعدم الثقة أو إلى الضيافة ، هي قابلة للتحول أو الانقلاب ، وكل خروج على قانون الضيافة ، أو إخلال به ، من قبل الضيف ، يسمح للمُضيف بالعودة إلى الوضع السابق ، أي العداء ،

ويعود الضيف ، المخل بهذا القانون ، إلى حالة «غريب» منبوذ ، أي إلى عدو . ويختتم Pitt-Rivers بقوله إن وضع الضيف وضع مؤقت ، لأنه يفترض علاقة عداوة معلقة ، من طريق تبادل التكريم والشرف ، وهذه العلاقة المعلّقة ، لا يمكن إلا أن تسير نحو الاندماج في الجماعة المستضيفة ، أو إلى الإقصاء عنها[١٤] .

وبعد هذه الجولة السريعة في الأنثروبولوجيا ، إنتقلت إلى الإنتاج الأدبي ، لاعتقادي أنه أكثر غنى ، في هذا المضمار ، أكتفي ، لضيق المجال ، بالإشارة إلى دراسة حول مسرح الأخوين رحباني ـ فيروز ، تناول فيها الباحث شخصية «الغريب» . فتبين له أن المعنى السائد ، في هذا المسرح ، هو «الغريب» عن القرية[١٥] .

ويبرز في الخطاب ، إلى جانب المعنيين السابقين ، معنى ثالث لـ «الغريب» ، ما قبل وطني ، يمكن نعته بالطائفي ، نختصره بالجملة التالية : «الغريب» هو الذي لا ينتمي إلى طائفتي ، أو «الغريب» هو الذي ينتمي إلى طائفة أخرى . ويبرز هذا الاستعمال في الخطاب ، في صيغتين متناقضتين ، صيغة تأكيد ، وصيغة نفي . تؤكد الأولى على أنه بالفعل «غريب» ذاك الذي لا ينتمي إلى طائفة بعينها ، إلا أن هذا التأكيد خجول ، قليل الورود على لسان المتكلمين ، وهو يختلف عن المعنيين السابقين («الغريب» من دم آخر ومن جيرة أخرى) كون المتكلم يطبقه على ذاته ، الذات الفردية (أنا) ، أو الذات الطائفية (نحن) .

«المفروض إني أرحل من الحي يللي فيه ، إلى الحي يللي من ديني ، لأنو أنا غريب بينهم ، يعني بدّا تكون العين محمرّة تجاهي» .

«يلي هجّرناهم ، شلنا الفلسطينيين الغرباء من بيناتنا ، لا الطائفة الأخرى ، بينما ما تهجّر من بيتو إلا المسيحي» .

(يفهم من المتكلم ان المسيحي عومل كـ «الغريب» ، والمتكلم أيضاً مسيحي) .

«قبل الحرب ما فكرنا ، هلق صرنا مجبورين نكون هيك : أنا وأخي على ابن عمي ، ابن عمي الغريب . يعني نكون نحنا مع بعضنا كمسيحيين وهني كإسلام مع بعضهم» .

ويظهر ، في المثل الأخير ، كيف يبني المتكلم معنى «الغريب» بتحوير المثل الشعبي المعروف وتحويل صلة الدم والقرابة (الأخ وابن العم) إلى صلة طائفية أو دينية .

(أخي = من طائفتي ، وابن عمي = من الطائفة الأخرى) .

وبالإضافة إلى كون «الغريب» هنا ، هو الذات الفردية ، أو الطائفية ، يختلف هذا المعنى لـ «الغريب» ، المبني على الانتماء الطائفي ، عن المعنيين السابقين (الدم والجيرة) ، كون المتكلمين ، ينتمون ، في الحالات الثلاث ، إلى الطائفة المسيحية ، ويعرّفون بأنفسهم كذلك . فتعود ، هنا ، لتبرز عقدة الأقلية ، التي تخشى أن تُعامَل كـ «الغرباء» فتشعر بالتهديد والغربة ، عندما تخرج من محيطها الطائفي أو الديني ، وتجد نفسها في محيط من دين آخر أو طائفة أخرى . ويدعم هذا التفسير ، نفي أحد المتكلمين الشعور بالغربة ، عندما كان يعيش وعائلته في منطقة مسيحية . إن انتماءه إلى الطائفة السنية ، وهي الأكثرية في المنطقة العربية ، قد يفسر هذا الاطمئنان الظاهر في كلامه ، الواضح جداً :

«نحن العائلة الوحيدة المسلمة في منطقة كلها مسيحية ، نحن مش من ها الطائفة وكانوا يعاملونا بالحسنى ولم نحس إنو نحنا غرب» .

أما الصيغة الثانية ، وهي صيغة نفي أو رفض تحديد «الغريب» بانتمائه إلى طائفة أخرى ، فهي طاغية في الخطاب عن «الغرباء» ، وسنعود إليها ، عندما نصل إلى المعنى الحديث لـ «الغريب» اللامواطن ، لأنها تشكل الدعامة الأساسية لهذا المعنى الحديث ، الذي يقوم على نفيها .

قبل الانتقال إلى المعنى «الحديث» لـ «الغرباء» ، يظهر أن الخطاب توصل إلى هذا المعنى ، عبر سلسلة من المعاني ، أطلقنا عليها اسم القديمة ، وهي تنطلق من دائرة علاقة الدم ، إلى دائرة علاقة المواطنة ، مروراً بالجيرة والطائفة . ولعل أفضل تعبير عن هذه السلسلة ، ما ورد على لسان أحد المتكلمين :

«أكيد وقت الحشرة بينجبر الواحد يعتمد على عيلته وبالتالي على قرايبو وبعدين على ضيعتو وبعدين على حد ضيعتو وهكذا سلسلة وخصوصاً على الطائفية ، أي بدو يرجع الإنسان إلى طائفته . لو كنا كلنا وطنيين لبنانيين ما كنا بنفكر بها الشيء : أنا وأخي على ابن عمي ، ابن عمي الغريب نحن مع بعضنا كمسيحيين وهني الإسلام مع بعضهم قبل الحرب ما فكرنا . هلق صرنا مجبورين نكون هيك» .

ويلخص الشكل التالي هذا التسلسل في معاني «الغريب» وانحدار كل منها من المعنى السابق من طريق الإقصاء ، إبتداءً من دائرة علاقة القرابة بالدم ، وصولاً إلى دائرة المواطنة . فكلما انحسرت دائرة الإقصاء إتسعت وتنوعت دائرة الانتماء المشترك .

<table dir="rtl">
<tr><td colspan="4">أبناء الوطن نفسه</td><td rowspan="2">أبناء الأوطان أو البلدان الأخرى عربية أو غير عربية</td></tr>
<tr><td colspan="3">أبناء الطائفة نفسها (أو الدين)</td><td>أبناء الطوائف الأخرى
أو الأديان الأخرى</td></tr>
<tr><td>العائلة ، العشيرة
أنا الإخوة/ الأقرباء
الأبوان/ من أولاد العم
الأولاد/ إلى أبناء العائلة والعشيرة نفسها .
← قرابة الدم →</td><td>الجيران
في السكن
من الحي
إلى القرية
قرابة الجيرة</td><td>العشائر الأخرى
القرى الأخرى
الأحياء الأخرى
المدن الأخرى
قرابة الدين أو الطائفة</td><td></td><td>البلدان المجاورة العربية
<u>غريب</u>
البلدان البعيدة الغربية وغيرها
<u>أجنبي</u></td></tr>
<tr><td>الغريب بمعنى الأقدم :
ليس من دمي ، ليس من عائلتي وعشيرتي .</td><td colspan="2">الغريب : الذي لا ينتمي
إلى جيرتي</td><td>الغريب : ليس من
طائفتي أو من ديني</td><td><u>الغريب</u> بالمعنى الحديث :
ليس من وطني</td></tr>
</table>

ويبقى «الغريب» بالمعنى القديم، الماقبل وطني، إستثنائياً في الخطاب المدروس، إذ لا يرد، إلا في كلام ٧ متكلمين من أصل ٥٧، فالأكثرية يستخدمون اللفظة بمعناها الحديث، أي بانتفاء الانتماء إلى الوطن نفسه .

وتظهر، في الخطاب، صعوبة الانتقال من الانتماء العائلي الطائفي إلى الانتماء الوطني . فالوطن هو القيمة المقدسة في الأيديولوجية اللبنانية والاستقلالية الحديثة . أما الطائفية، في القيمة المنبوذة، فهي العيب . ويساعد مفهوم «الغريب» على تبرير اللجوء إلى العائلة والطائفة، وتقييم الطائفة إيجابياً على أساس تشبيهها، أو معادلتها بالوطن .

«إنو الواحد لو رجع لعيلتو ولطائفتو (بسبب الحرب) هيدا مش عيب . الحقيقة إنو قرايبو وحبايبو وطائفتو للواحد هي وطنو وأولاد وطنو قبل الغريب يلّي هو براة وطنو . جاري القريب إن كان مسيحي أو درزي قادر ينفعني أكثر من خيّي البعيد (مثلاً إذا كان أخي في أمريكا)» .

ويترجح، هنا، معنى الوطن بين معنيين مختلفين :

الوطن = الأقرباء وأبناء الطائفة/ «الغريب» هو خارج هذا الوطن، وطن الأقرباء وطائفة المتكلم .

الوطن = جميع الطوائف في لبنان/ و«الغريب» هو الخارج عن مجموعة الطوائف اللبنانية .

فكما أن معنى الوطن، في هذا السياق، يترجح بين الوطن ـ الطائفة والوطن ـ ومجموعة الطوائف اللبنانية، كذلك يتراوح معنى «الغريب» بين «الغرباء» أبناء الطائفة الأخرى و«الغرباء» غير المنتمين إلى مجموعة الطوائف اللبنانية (أي الوطن) .

ويقوم المعنى الحديث لـ «الغريب» (اللامواطن) على أساس المتكلمين تحديد «الغريب» بانتمائه الطائفي . ويشدد المتكلمون، في الوقت نفسه، على

رفض تحديد المواطن على أساس الانتماء الطائفي أو الديني ، فتتضح بشدة المعادلة التالية في الخطاب .

«إن الغريب غريب ، حتى لو كان من طائفتي» .

«والمواطن مواطن ، حتى لو كان من غير طائفتي أو ديني» .

ويظهر هذا الرفض المطلق والتأكيد المطلق المواكب له ، في الأشكال التالية :

«الغريب» «الغرباء» = غير اللبنانيين	المواطن اللبناني = ابن بلدي
ـ «ما في قواسم مشتركة تجمعنا بـ «الغريب» ، حتى لو كان ابن ديني» ـ «جميع «الأغراب» أيا كانت طوائفهم» ـ ««الغريب» مهما كان انتماؤه الطائفي» ـ ««الغريب» مهما يكون» ـ «ولو كان مسيحي مش من لبنان» ـ «مسلم مسيحي درزي أو يهودي» ـ «مثلاً السوري المسيحي» ـ «حتى لو كان من طائفتي أو من طائفة ثانية أو من وطني» ـ «موسم الحج يجمعنا بهذه الطوائف لمدة قصيرة» ـ «غير اللبناني ، حتى لو كان من طائفتي»	«إبن بلدي ، حتى لو كان من غير طائفتي» «إبن بلدي ، مهما كانت طائفته» «المواطن اللبناني ، أياً تكن طائفته» «اللبناني إن كان مسلم والا درزي» «لبناني إن كان مسلم أو مسيحي أو درزي أو روم أو كاتوليكي» «اللبنانيين إن كانوا إسلام أو مسيحيين» «الشعب اللبناني مسلم ومسيحي» «نحن كشعب لبناني بمختلف طوائفنا» «اللبنانيين بين بعض إن كانوا إسلام أو مسيحيين» «إبن دولتي شو ما كان دينه أقرب إلي لأنه ابن وطني وابن بلدي» «اللبناني ، حتى لو كان منو سنّي» «اللبنانيين إسلام ومسيحيين أقرب لي من غير اللبناني ، حتى لو كان من طائفتي» «مسلم سني شيعي كلهم رب واحد وطن واحد» «الإسلام والمسيحيين كلنا ولاد لبنان»

ويظهر بوضوح أن المتكلمين ، يصبّون أقصى جهدهم على رفض اعتبار اللبناني ، الذي ينتمي إلى طائفة أخرى ، غريباً ، ويؤكدون في الوقت نفسه ، وبإصرار ، أن المواطن اللبناني مواطن ، حتى إذا انتمى إلى طائفة أخرى ، غير طائفة المتكلم . وينبغي التوقف قليلاً عند تاريخ الطوائف ، في هذا الجزء من العالم ، لتفسير هذا الرفض المطلق والتأكيد المطلق ، المتلاصق به ، في الخطاب ؛ إذ لا يريد النفي دون أن يتبعه التأكيد ، والعكس بالعكس .

كانت السلطنة العثمانية ، ذات الهيمنة السنية ، قد وضعت للأقليات الدينية المسيحية واليهودية ، القاطنة في المنطقة العربية ، نظاماً خاصاً لأهل الذمة ، ذا تشريع خاص ، يحظر عليهم عدداً من الممنوعات (كالزواج من مسلمة والعمل العسكري والمشاركة في الحرب) ، ويمنحهم مجموعة من الحقوق (كحق التملك وممارسة الطقوس الدينية ، واختيار رؤسائهم والتجارة . . .) والواجبات (دفع جزية إلى السلطان وحكامه ، مساعدة المسلمين في حالة الحرب . . .) ، لا نشاطر Armand Abel[١٦] رأيه ، الذي يعتبر أن «أهل الذمة كانوا يكوّنون أمة غريبة داخل السلطنة» وأن «الإسلام الكلاسيكي ، استخلص بشكل منطقي وتلقائي مفهوم «الغريب» من مفهوم عدم الانتماء إلى الجماعة الدينية ، الأمة الإسلامية» .

ونميل ، بالأحرى ، إلى الاعتبار أن الطوائف الأقلية ، أي الجماعات الدينية غير الإسلامية ، كانت تعامل ، آنذاك ، كجماعات ـ مُستضافة (com-munauté-hôtes) ، تتمتع بالحماية وعدد من الامتيازات والحقوق والواجبات والمحرمات ، داخل الأمة الإسلامية المهيمنة والمستضيفة .

أما الجماعات الإسلامية ، التي كانت في صراع مع السلطنة ، تطعن في شرعيتها الدينية والتاريخية ، كالطوائف الشيعية مثلاً ، فوجدت نفسها في حالة عَزل وإقصاء .

يلقي هذا التفسير التاريخي السريع ، ضوءاً على شعور بعض المتكلمين المسيحيين بالقلق وبالغربة ، عندما وجدوا أنفسهم في وضع أقلوي ، داخل منطقة ينتمي معظم سكانها إلى دين آخر ، كما يفسر الرفض المكرر من قبل كافة المتكلمين ، من كافة الطوائف اللبنانية ، تحديد الغربة على حدود طوائفهم ، وجهدهم المكرر لدفعها خارج إطار الكيان اللبناني الحديث ، الذي نشأ بعد تفكك السلطنة العثمانية والانتداب الغربي . إن إرادة انتمائهم إلى هذا الكيان الوطني الحديث ، المهدد من جراء الحرب الأهلية ، يفسر شدة رفضهم للكيان الطائفي السابق ، النافي له .

«الغريب» ، «الغرباء» بالمعنى الحديث : اللامواطن

يظهر أن المعنى الطاغي لـ «الغريب» في الخطاب ، هو «الغريب» الذي يحدده المتكلمون باللاانتماء إلى الوطن ، لبنان ، فـ «الغرباء» بهذا المعنى ، هم غير اللبنانيين أو اللامواطنون .

ويظهر ، هنا ، أيضاً ، أن الشكل السائد في تعريف «الغرباء» بهذا المعنى الحديث ، كما في المعاني القديمة ، هو تعريفه بالإقصاء أو النفي (definition par exclusion) لا تعريفه بحد ذاته . فهو تعريف بالنسبة إلى «نحن» . ويتضح أن «النحن» ، هم المواطنون اللبنانيون ، أو الوطن اللبناني . ويتكرر هذا الإقصاء ، على طول الخطاب ، بشكل ترددادي ، يكاد يصل إلى شكل الفكرة المتسلطة (idée fixe) أو الوسواس ، عبر الصيغ التالية :

«ناس غريبة عن لبنان» «واحد مش من لبنان» «لا تنتمي إلى الشعب اللبناني» «فئة مش لبنانية» «الإنسان الغريب عن أرضه وعن وطنه» «الأغراب عن لبنان» «من براة لبنان» .

ويتضح أكثر هذا المعنى «الحديث» لـ «الغرباء» بشكل غير مباشر ، عندما يعرّف أحد المتكلمين «نحن» المواطنين بالقواسم المشتركة ، التي تجمع اللبنانيين فيما بينهم .

«ما في قواسم مشتركة تجمعنا بالغريب ، لا مصير مشترك ، لا وطن ، لا تاريخ ، لا حضارة مشتركة ، لا شيء أبداً» .

ويركز البعض الآخر على اختلاف العقلية بين اللبنانيين و«الغرباء» .

«عندهم عقلية غير اللبنانيين» « ،لا يعرف كيف عقليتي» وهذه التأكيدات ، تتخذ شكل الجزم ، وهي غير مفصلة بالتأكيد . ويشدد الكثيرون على انعدام العلاقة بين «الغرباء» واللبنانيين بشكل مطلق .

«ما في أي علاقة معه» .

«ما في شيء أبداً يجمعنا به» .

ومن طريق نفي القواسم المشتركة ، بين «الغرباء» و«نحن» اللبنانيين ، يحدد الخطاب مقومات المواطنة اللبنانية ، «بالتاريخ المشترك والمصير المشترك والحضارة المشتركة والعقلية المشتركة» . ويظهر ، هنا ، المعنى العام جداً ، والفائق الاتساع للمواطنة : الماضي (التاريخ) والحاضر (الحضارة) والمستقبل (المصير) . وهذه العناصر الثلاثة ، تحدث في نفسية الجماعة الوطنية «العقلية المشتركة» .

والجدير بالإشارة أن عنصر اللغة ، لا يدخل في هذا التحديد ، ربما لأن اللغة هي العنصر الوحيد المشترك ، بين معظم «الغرباء» واللبنانيين . ويتضح ذلك ، عندما يحدد الخطاب انتماء «الغرباء» أو هويتهم الوطنية .

الانتماء إلى الخارج

تتكاثر ، في الخطاب ، الإشارات إلى انتماء «الغريب» إلى الخارج غير المحدد ، وتنبع المشكلة من كونه موجوداً في «الداخل» ، ولكن لا ينتمي إليه : «من برا» الخارج من البلد «الدخلاء إلى البلد» «ناس من برا» .

ويتبين ، أحياناً ، أن هذا «الخارج» هو «وطن آخر» ، أو «دولة أخرى» ، مما يرسخ المعنى الحديث لـ «الغرباء» .

«اللي هو براة وطنو ، إلى أية دولة انتموا» .

ولكن يتضح ، بسرعة ، أن الوطن الآخر ، أو الدولة الأخرى ، ليست أية دولة أجنبية ، أو وطن آخر ، غير لبنان ، ولكن يبدو أنها ، بصورة غالبة ، إنتماءات إلى أوطان عربية ، وهناك شبه إجماع ، في الخطاب ، على أن «الغرباء» هم «فلسطينيون» أو «سوريون» أو الاثنان معاً . وهناك شبه إجماع ، لدى المتكلمين ، على تأكيد هذين الانتماءين العربيين لـ «الغرباء» ، وفي بعض الاستعمالات النادرة ، يمكن أن يكونوا «ليبيين» أو «عراقيين» أو «مصريين» أو «سعوديين» .

وتتأكد الهوية العربية لـ «الغرباء» بهذه الاحتمالات الأخرى ، المذكورة على سبيل المثال ، إلا أن الجماعات العربية ، المقيمة فعلاً في لبنان ، هي ، بشكل أساسي ، اللاجئون الفلسطينيون ، المتواجدون ، بشكل جماعي ، في المخيمات ، وعبر تنظيماتهم المسلحة ، والعمال السوريون والمصريون ، المقيمون في لبنان ، والمنظمات العسكرية ، التابعة لهذا البلد العربي أو ذاك .

ويمكن ، بصورة استثنائية ، أن يكون «الغريب» غير عربي (أميركي أو إيطالي) . ولكن هذه الاستعمالات نارة جداً ، وتظل الهوية الطاغية لـ «الغريب» في الخطاب ، هي الهوية العربية ، الفلسطينية والسورية بشكل خاص .

ويبرز ، هنا ، الاختلاف بين «الغرباء» و«الأجانب» (الذي لا يظهر ، إلا نادراً ، في الخطاب المدروس) . وبعد تحليل حقول دلالة كلمة «أجانب» ، ومقارنتها بحقول كلمة «غرباء» ، تبين لنا أن الكلمتين تشيران إلى دوائر انتماء

مختلفة ، وإن اشتركتا بكون المشار إليهم ، في الحالتين ، «غير لبنانيين» أو «من خارج لبنان» .

الفارق الأول ، هو أن الخطاب ، لا يشدد على أن «الأجانب» هم من خارج ، فهذا الأمر مفروغ منه ، ولا حاجة إلى التشديد عليه ، في حين أنه يكرر ذلك ، بالنسبة إلى «الغرباء» ، وذلك أن «الغريب» ، يبدو أقرب إلى اللبنانيين ، من حيث الإقامة واللغة (العربية) . فالمجهود المبذول من قبل المتكلمين ، لإقصائه أو رفضه ، أو على الأقل الإشارة إلى اختلافه ، هو مجهود مضاعف ، لأن ذلك غير واضح تماماً للشاهد العيان ، كما هو الحال بالنسبة إلى الأجنبي ، الذي يختلف تماماً عن اللبناني ، لغة وشكلاً وإقامة ، ويظهر جلياً أن التأكيد على الذات الوطنية اللبنانية ، في هذا الخطاب ، يتم على حساب «الغريب» ، لا على حساب الأجنبي .

ويبدو أن «الأجنبي» ، أو «الأجانب» ، هم ، بصورة غالبة ، في الخطاب ، الغربيون وتحديداً «إنكليز» ، «أمريكان» ، «إبن فرنسا» ، «إبن أستراليا» ، «اسبانيول» ، «طليان» ، «يابان» .

ولا ينعت «الفلسطينيون» و«أولاد الخليج» بالأجانب ، إلا استثنائياً (٣ مرات فقط) . ويأتي ، في هذه الحالة ، استعمال «أجنبي» مرادفاً لاستعمال «غريب» ، تربط بينهما علاقة عطف أو نعت في الصيغ التالية :

«الغريب أو الأجنبي» «هؤلاء الغرباء الأجانب» .

ويلخص الشكل التالي الفارق بين الاثنين :

فـ «الأجنبي» هو غير اللبناني ، وبصورة أساسية» غير العربي . أما «الغريب» ، فهو غير اللبناني ، وبصورة أساسية العربي . فيظهر في نهاية التحليل ، أن ما يميز ، في معظم الحالات ، بين اللفظتين ، هو الانتماء «الغريب» أو عدم الانتماء «الأجنبي» إلى الهوية العربية[١٧] .

«الغريب»/ «الغرباء» بالمعنى السائد في الخطاب	مرادف «أجنبي» = «غريب» بالمعنى الاستثنائي في الخطاب	«الأجنبي»/ «الأجانب» بالمعنى السائد في الخطاب
من بلدان عربية مجاورة فلسطيني أو سوري (لغة مشتركة) ولكن مقيم في لبنان	من بلد عربي أو غربي ، بدون تمييز	من بلدان غربية بعيدة أوروبية ، أميركية أستراليا أو اليابان غير المقيمين أو المتواجدون كجماعات في لبنان (لغة مختلفة)
«الغريب» العربي ، وغير اللبناني	أجنبي = غريب X غير لبناني	أجنبي غير عربي ، وغير لبناني

التحديد الاجتماعي ـ الاقتصادي لـ «الغرباء»

تحدد بعض المواصفات والأفعال ، المنسوبة إلى الغرباء ، في الخطاب المشترك ، وضعهم الاجتماعي ـ الاقتصادي . تكفي هذه المواصفات ، على قلتها ، لإيضاح مكانتهم الاجتماعية ـ الاقتصادية[١٨] .

فتبدو هذه المكانة مزدوجة ، إذ يوصف «الغرباء» ، إما بالـ «فقراء» ، أو بـ «الأغنياء» ، أو بالاثنين معاً .

فإذا وصف «الغرباء» بـ «الفقراء» و«المحتاجين» ، ينظر إليهم «كعناصر غريبة حاملة الفقر والحرمان والحقد على الذين طردوها من بلادها» (يقصد بهم الفلسطينيون) ، أو إنهم «عمال مصريون» ، فهم ، عندئذ ، يمكن أن ينافسوا العمال اللبنانيين : «لا نريد أن يشتغل محل اللبناني» . وفي كلتا الحالتين ، يشكلون خطراً على المجتمع بمجرد وجودهم ، وبسبب تحالفهم مع أعداء الداخل ، الذين يحددهم الخطاب ، إما بالدونية الاجتماعية وإما بالجهل أو بالإجرام ، عبر الصفات التالية :

«الشعب الضعيف» «الشعب يللي ما بيفهم» ، «اللبنانيين غير المتعلمين أو الأميين وأنصاف المتعلمين» ، أو بالخروج على القانون أي الإجرام : «كل شي في مجرمين في العالم في لبنان» «المجرمين» «عصابات» ، «نحن اللبنانيين عدم احترامنا للقانون» .

أما فيما يتعلق بـ «الغرباء» الأغنياء ، فتعود ، هنا ، لتظهر في الخطاب الصورة الأسطورية لـ «الغريب» التاجر والمتموّل ، عبر الأفعال التالية ، المنسوبة إليه : «يقعد يشتغل تاجر» ، «بيتاجر» ، «جاء ليفتح مصالح في لبنان» ، «معو أموال» . وفي حين أن موقف الخطاب واحد تجاه «الغرباء» ، «الفقراء» و«العمال» وهو الرفض ، يتراوح موقف الخطاب (المتكلمين) من «الغرباء» «الأغنياء» ، بين القبول المشروط والرفض المطلق . فقبولهم مشروط بمشاركتهم في المصالح مع سيطرة الشريك اللبناني ، بعد اعتراف أصحاب هذا الرأي «أن المصالح فقط تجمعنا» ، يصرحون بوضوح : «إذا جاء «الغريب» ، ليفتح مصالح في لبنان ، يجب أن يكون اللبناني شريكه الأهم» .

وتحت شعار «ليس النظام الاقتصادي الحر لـ «الغرباء»» ، يعبر الفريق الثاني عن رفضه لـ «الغرباء» الأغنياء ، إما خوفاً من منافستهم ، إذا كانوا تجاراً ، في التصريحات التالية :

«لا يجب أن يقعد يشتغل تاجر ويضارب على اللبنانيين» ، «ما بتفرق معو إلا يطلع وينتج لمصلحتو هو فقط» ، «بدو ينال طلبو عن طريق لبنان» ، «بدو يساوي مصالحو» .

وإما خوفاً من استغلالهم : «لا نريد أن يأتي ويقعد يشتغل ويحطنا شغيلة عنده» . وتختلف المواقف باختلاف وضع المتكلمين الاجتماعي : فالذي يخشى المنافسة ، غير الذي يخشى الاستغلال .

ويجمع المتكلمون على رفض إعطاء «الغرباء» حق التملك ، ذلك أن الملك يفتح الطريق للسيادة ،الاستقرار والتوطن . فالموقف ، هنا ، صريح ، وهو

الرفض المطلق : «الغريب لا يجب أن يتملك» ، «ليس شريك اللبناني في ملكه» . فإذا كانت المشاركة مقبولة ، أحياناً ، في التجارة والأعمال ، فإنها مرفوضة تماماً في الملك .

إذا كانت تحديدات «الغريب» الاجتماعية والاقتصادية نادرة في الخطاب ، فإن مواصفات «الغرباء» وأفعالهم وكافة محدداتهم السياسية ، هي كثيرة ، يمكن ، إذا أعيد ترتيبها ، استخلاص نوع من الاستراتيجية السياسية ، ينسبها المتكلمون إلى «الغرباء» .

الاستراتيجية السياسية ، المنسوبة إلى «الغرباء» في الخطاب اللبناني

لقد استخلصنا ، من الخطاب المشترك ، بعض الوسائل والأساليب ، التي تشكل الاستراتيجية المنسوبة إلى «الغرباء» لبلوغ أهدافهم .

الوسائل

يركز المتكلمون ، من كافة الطوائف ، على ارتفاع عدد «الغرباء» في تعابير شتى ، لا يخلو بعضها من التضخيم . فيتصور أحدهم أنهم أصبحوا «أكثر من اللبنانيين» ، ويلجأ الآخر إلى وصفهم بـ «جحافل من الجيوش الغريبة» وبـ «التجمعات» ، ويبدو أن هاجس العدد ، يبرز في معظم الخطب عن «الغرباء» ، وفي كافة أنحاء العالم . ويرى الباحث الفرنسي J. Baechler[١٩] في مقال له حول «الغرباء» في فرنسا ، العمال العرب بصورة خاصة ، أن الموقف منهم يختلف باختلاف عددهم . فإذا كانوا مجموعة صغيرة جداً ، أو بضعة أفراد ، تكون ردات الفعل تجاههم نوعاً من السخرية أو الاستهزاء ؛ إذ إن عادات الآخرين تبدو دائماً غريبة ، أو مضحكة . أما إذا أصبح التماس دائماً بأعداد كبيرة من «الغرباء» المقيمين في الوطن ، فتحل العدائية مكان السخرية . وقد حاول البعض تقدير المستوى الكمي لـ «الغرباء» ، الذي تتحول ، عند بلوغه ، السخرية إلى عدائية ، فقدموا نسباً تتراوح بين ١٠

و١٥٪ من «الغرباء» ، نسبة إلى عدد المواطنين . ويضيف Baechler ، أن هذه النسبة تختلف باختلاف الانتماء الاجتماعي ودرجة الغرابة ونوعية السكن . أما في لبنان ، وفي ظروف الحرب الأهلية ، فإن عتبة التحمل (seuil de tolér-ance) ، لا تتعدى نصف النسبة المذكورة أعلاه ، إذ يقول أحد المتكلمين إنه «يجب تحديد نسبتهم بـ ٦ أو ٧٪ من السكان» ، ويقترح آخر «عدم فتح الباب على مصراعيه لـ «الغريب»» .

ويبدو أن الخوف من «الغرباء» ، والعدائية تجاههم ، وحتى نعتهم بـ «الغرباء» ، تظهر عندما تقترن الكثرة العددية بامتلاك السلاح . فالفلسطينيون موجودون بكثرة في لبنان منذ ١٩٤٨ ، ولم يُنعتوا بـ «الغرباء» ، ولم تبرز المشاعر العدائية تجاههم ، إلاّ بعد ظهور المقاومة المسلحة في المخيمات . ويشدّد الخطاب المشترك على تسلّح «الغرباء» ، بالقوة نفسها التي يشدد بها على كثرتهم . في تعابير متنوعة :

«أغراب معن أسلحتهن» ، «هذه الجماعة المسلحين» .

«جيش غريب» «جحافل من الجيوش الغريبة» .

وتزداد خطورة «الغرباء» ، في خطاب المتكلمين ، كونهم يلاقون تأييداً ، أو مناصرة داخلية ، من قبل فئات من الشعب اللبناني ، يحددها بعض المتكلمين بهذه الطائفة أو تلك : «فئة كبيرة من اللبنانيين» ، «الإسلام» ، ويكتفي البعض الآخر بالإشارة إليها دون تسميتها : «فئة ثانية من اللبنانيين» . ويتهم آخرون «الأحزاب» ، بشكل عام ، و«اليسار» خاصة ، بمشاركة «الغرباء» في العمل السلبي ، من طريق «استقطاب عدد كبير منهم في صفوفهم» . أما الذين يخشون الإشارة إلى الطائفة ، فيتهمون فئات داخلية دونية ، يمكن تسميتهم أعداء الداخل[٢٠] ، بمناصرة «الغرباء» وهم ، بدرجة أولى ، الخارجون على القانون ، «من مجرمين» و«عصابات» ، «وكل شي في مجرمين بالعالم» ،

و«زعماء مرتشين» ، ثم الفئات الاجتماعية الفقيرة والأمية ، التي يمكن أن تنجرف وراء الوعود الكاذبة . وتبرز هذه القوى ، في الخطاب ، كقوى مشاركة أو مساعدة لـ «الغرباء» ، وتحت تسميات شتى : «الشعب الضعيف» ، «الشعب يللي ما بيفهم» ، «اللبنانيين غير المتعلمين أو الأميين وأنصاف المتعلمين» .

ويتّهم المتكلمون «الغرباء» بالاستفادة من المساعدة والدعم الخارجيين ، كما يتهم الدول الخارجية باستخدام «الغرباء» للعمل داخل لبنان . ويجمع معظم المتكلمين على حصر الخارج في الدول العربية المجاورة ، أو المتطرفة ، أو جميعها دون تحديد :

«كان يشتغل لعوامل خارجية ومنها الدول العربية المتطرفة : ليبيا ، إيران وسوريا» . «الدول العربية المجاورة» . «جميع الدول العربية دخلت على هذا البلد» ، «العرب كلهم» .

أما الدول الغربية ، فهي غير مذكورة ، الأمر الذي يؤكد اقتران الغرابة بالدائرة العربية ، داخل هذه الذهنية .

إن هذه الوسائل الذاتية (الكثرة والسلاح) والدعمين الداخلي والخارجي ، تؤهل «الغرباء» للعب دور سلبي ، يصفه الخطاب بمجموعة من الأساليب والأعمال ، تتراوح بين الأعمال المخلّة بالأمن وإشعال الحرب الأهلية .

الأعمال المخلة بالأمن الاجتماعي

وهي أعمال الإجرام والتخريب والخطف والقتل ، وكافة التجاوزات المنسوبة إلى «الغرباء» ، والتي يمكن وصفها بالأعمال الإرهابية :

«قاموا بتجاوزات» ، «هم الذين خربوا البلد» ، «كان يعمل حواجز خطف بالمناطق المسيحية والإسلامية» ، «بلشت تقتل» «بلش الذبح» .

ويجمع الخطاب المشترك على أن «الغرباء» ، يسعون إلى بلوغ أهدافهم ، عبر أسلوب : فرِّق تَسُد ، مناصرين فئة من اللبنانيين ضد فئة أخرى ، وعاملين على التفرقة بين الطوائف اللبنانية ومنع التقارب بينها . ويذهب البعض إلى حد تحميلهم مسؤولية وجود الطائفية في لبنان .

ـ «تناصر فئة ثانية» ، «صارت تساعدهم علينا» «حاول يكسب الإسلام» .

ـ «قدر يكسب الإسلام لمرحلة واسعة من الزمن» ، «تشجع وفات على اليسار» .

ـ «مدّوا هذه الأحزاب بالسلاح والماديات» .

ـ «استغل الوجود الطائفي في لبنان حتى يوضعوا تفرقة بين الشعب الواحد والطوائف المتعددة» ، «هو اللي بيفرق بين الطوائف» ، «فسخ اللبنانيين عن بعضهم البعض» ، «عملت هذه الطائفية» ، «ما خلتنا نتقرب على بعض» .

ويبرز لدى البعض التصور الوهمي ، أن اللبنانيين شعب مكتمل الوحدة ، وأن الفرقة والاختلاف والطائفية هي من صنع «الغرباء» . فكل أمراض المجتمع اللبناني تُلصق بهم ، ويجمع المتكلمون على تحميل «الغرباء» مسؤولية الحرب الأهلية ، جزئياً ، كعناصر مساهمة ، أو كلياً ، كعناصر مفجِّرة لها ، ولاعبة الدور الأساسي فيها :

ـ «ليست السبب الأساسي للحرب وإنما عنصر كثير مهم» ، «هم ساعدوا على تفجير الوضع ، سواء مباشرة بوجودهم أو بصفة غير مباشرة» .

ـ «شعّل حرب لبنان» ، «فجرت أحداث الـ ٧٥ في لبنان» ، «فجّر هذا الوضع في لبنان» .

ـ «هنّي لعبوا الدور الأساسي بتوجيه الوضع» ، «عمل ها الفتنة كلها» ، «لعبوا دور مباشر بلبنان» ، «هم السبب المباشر الرئيسي للمعركة الداخلية في لبنان» ، «عملت ها الحوادث» .

إن مجموعة الأساليب والأفعال، التي يقوم بها «الغرباء»، غايتها التوصل إلى أهداف نهائية، يختلف المتكلمون في تشخيصها، وإنما تعطي صورة متكاملة عن «الاستراتيجية» المنسوبة، في الخطاب المشترك، إلى «الغرباء». تتراوح هذه الأهداف بين إرادة السيطرة السياسية على المواطنين اللبنانيين، المُعبر عنهم بصيغة المتكلم الجمع «نحن»، «نا»، ورفض هذه السيطرة، وسعي «الغرباء» لأخذ هوية وطنية لهم في لبنان. ولا يحدد المتكلمون إذا كانت إرادة التجنس، هي بأخذ هوية لبنانية، أو بفرض جنسية أخرى ووطن آخر لهم داخل الوطن اللبناني. والسعي الأخير، المنسوب إليهم، هو استلام السلطة، وإيجاد نظام آخر في لبنان، يختلف عن النظام الحالي :

ـ **أخذ هوية** : «بدّو يفوت المجتمع ليركز حالو وليأخذ وطن»، «كان حابب يوجد نفسه على الأرض ويعمل هوية إلو».

ـ **السيطرة** : «سيطروا علينا»، «إجوا يتحكموا فينا»، «لا نريد أن يسيطر على الأراضي اللبنانية»، «لا نريد أن يتحكم فينا» «يمارس صلاحيات ثانية وكبيرة».

ـ **إقامة نظام آخر** : «ممكن يستغلوا ضياع الكيان اللبناني لتسلم السلطة الشرعية»، «ليحولوا لبنان إلى دولة عنصرية عربية إسلامية».

وإذا كان المنتسبون إلى الطوائف الثلاث (السنية والشيعية والمارونية)، يجمعون على نسب وسائل وأفعال وأساليب وأهداف نهائية إلى «الغرباء»، تساهم جميعها في تشخيص عناصر «الاستراتيجية» المنسوبة إلى «الغرباء» لبلوغ أهدافهم النهائية في لبنان، إلاّ أن هناك اختلافاً بينهم في التشديد على هذا الأسلوب أو ذاك، وفي تحديد هذا الهدف أو ذاك، سنشير إليه في القسم الثالث من الدراسة.

(الوطن)	«الوطني» «المواطن اللبناني» «إبن الوطن» «أولاد الوطن» «أولاد وطنه» «الوطن»	(لبنان)	«اللبناني» «لبناني» «كل اللبنانيين» «جميع اللبنانيين» «الشعب اللبناني «لبنان
(البلد)	«إبن بلدي» «ابن البلد» «أبناء البلد» «ولاد البلد» «أهل البلد»	(الطائفة)	«اللبناني إن كان مسلم أو مسيحي أو درزي أو روم أو كاتوليكي» «الإنسان الذي ينتمي إلى طائفة معينة» «مسلم سني شيعي كلهم رب واحد وطن واحد» «إسلام أو مسيحين» «الإسلام بالاتفاق مع المسيحيين» «الطوائف المتعددة»

ويظهر ، في معظم الأحيان ، الالتصاق الكامل ، بين المتكلمين ، أو المخاطِبين والمخاطَبين ، في كثرة استخدام صيغة ضمير المتكلم ، في كافة التسميات السابقة :

«نحن اللبنانيين» «أنا كلبناني»

«نحن» «أنا مواطن» «إبن وطني»

«نحن كشعب لبنان بجميع طوائفنا»

«إبن بلدي» «إبن دولتي» «ولاد بلدي»

«نحن وإخواتنا الإسلام»

اللبنانيون مدعوون للتصدي لـ «الغرباء»

يجهد الخطاب المشترك في مواجهة هذه الأخطار، المحدقة بالذات وبالمواطن، في تعبئة كل الأفراد والجماعات المنتمين إلى الوطن اللبناني، والمؤسسات الوطنية العليا، ويدعوهم للتصدي لـ «الغرباء».

وتبرز، في تسمية الأفراد والجماعات، كل مشتقات «الوطن» و«لبنان» و«البلد» و«الأديان» و«الطوائف اللبنانية» في صيغ المفرد والجمع:

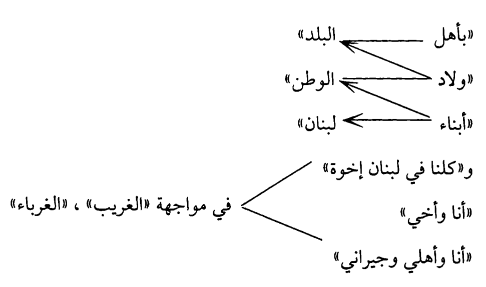
والجدير بالإشارة أن صيغة المتكلم، لا تظهر مقرونة بأسماء طوائف مجتمعة، مثل (نحن المسيحيين والمسلمين) فالضمير «نحن»، لا يجمع المسيحيين والمسلمين، كما يجمع المواطنين أو اللبنانيين.

ويعمل الخطاب المشترك جاهداً على تعبئة اللبنانيين ضد «الغرباء»، داعياً إياهم إلى الإجماع الوطني[٢١]. فيؤكد، تارة، أن هذه الوحدة قائمة فعلاً، وأن اللبنانيين «يد واحدة» و«كلنا في لبنان» و«أن الشعب اللبناني شعب واحد»، ويدعو، تارة أخرى، إلى اتحاد اللبنانيين ضد «الغرباء»، فيعترف ضمناً بانقسامهم، ويتهم «الغريب» بمنع اتحادهم:

«لولا الغريب لكان اللبنانيون متفاهمين متحابين إلى الأبد».

«نحن لازم نكون يد واحدة وطن واحد».

وبعد أن ينفي، بإصرار، الاختلاف الطائفي بين اللبنانيين، يجند الخطاب المشترك الرموز العائلية، لتسمية اللبنانيين وتعبئتهم ضد «الغرباء» فيشير إليهم:



ويدعو اللبنانيين إلى التصدي لـ «الغرباء» عبر استراتيجيتين ، تتراوحان بين الاحتواء والطرد . وقد أعدنا بناء كل منهما على أساس العناصر التالية : المبررات التي تقوم على أساسها ، الهدف الذي تبتغيه ، الوسائل التي تستخدمها والأساليب التي تدعو لاتباعها . وتنطلق كلتا الاستراتيجيتين من «خطيئة أصلية» ، يعترف فاعلوها بارتكابها ، في تصرفهم السابق تجاه «الغرباء» . يكشف الباحث الإيطالي V. Cotesta(٢٢) عن وجود استراتيجيات مماثلة ، لدى فئات شعبية إيطالية ، في دراسته للشعارات ، المطلقة بمناسبة قرار البلدية نقل سكان مهاجرين إلى حي شعبي إيطالي ، يجد ثلاث استراتيجيات ، حيال المهاجرين «الغرباء» ، عدائية تطلب إقصاء وطرد الدخلاء ، عدم اكتراث ، لا تعبر عن عداوة أو اهتمام ، واستراتيجية احتواء ومحبة ، تحملها جماعات ومؤسسات وأفراد قلائل ، وهم يدعون إلى احتواء «الغرباء» وتوطينهم .

ونعرض ، فيما يلي ، بشكل موجز ، الإستراتيجيتين المرجوتين تجاه «الغرباء» ونذكر بين مزدوجات العبارات الخطابية ، التي ارتكزنا عليها لإعادة تجميع عناصرها المختلفة :

ـ المحاجة المستخلصة من الخطاب حول «الغرباء» ، خلال الحرب الأهلية في لبنان

إستراتيجية الاحتواء	إستراتيجية الطرد
الخطيئة الأصلية	
ـ التسامح معهم وتقويتهم	ـ إدخالهم إلى لبنان
«الحكم صار يتسامح معهم من شي ٢٥ ـ ٢٠ سنة»	«الغلطة انو فوتناه على بلدنا»
«الدولة قوته وخلته يعمل ها الشي»	«بعض الزعماء»
	«الطائفية»
	«خلوا يفوت على البلد»

المبررات	
ـ تجاوزاتهم التي تخل بالأمن الاجتماعي وبالنظام	ـ عدم إمكانية أو إرادة التعايش معهم أو الاندماج فيهم
«قاموا بتجاوزات ولدت هذا الصداع»	«ما بقدر بندمج أنا وإياه»
«العمل التخريبي» «كان يخطف»	
«حابب يخترب ها البلد»	«عندهم عقلية غير اللبنانيين»
«لا يمكن لأبناء البلد التصدي لهم بصورة نهائية»	«ما في أي علاقة معه»
«يتضايقوا منهم اللبنانيين»	

الأساليب

تحجيم الغرباء ، الحد من عددهم وضبطهم	ـ رفض دخولهم ، التصدي لهم ، اضطهادهم
«لا يجب أن يعطوه رأساً الجنسية» «لا يجب أن أفتح الباب بمصراعيه له» «يجب تحديد نسبتهم إلى ٦ أو ٧٪ من السكان» «إلغاء السلطة التي يأخذها»	«لنحارب الوجود الغريب» «خلينا نضطهد كل إنسان غريب» «لا نقبل تفوت لعنا»

الوسائل

ـ الوحدة الوطنية	ـ الوحدة الوطنية
«دولة قوية تتمتع بسلطتها على جميع الأراضي» «سلطة الدولة»	الدولة القوية ـ الحكم القوي ـ الجيش القوي «حكم صارم قوي»

«الجيش اللبناني فقط يكون هو المسيطر على الأراضي اللبنانية»

الهدف النهائي : الحل

ـ ضبطهم تحت سيطرة القانون	طردهم ـ إلغاء وجودهم من لبنان
«أن يطبق النظام على الكل» «حكم صارم قوي يعامل الغريب مثل ابن البلد» «دولة قوية تسيطر على الغريب والقريب»	«يجب إبعادهم» ، «يطلب طردهم» «إلغاء الوجود الغريب من هون» «أن تنظف الدول أرض لبنان منهم» «براً !» ، يفلّ من هنا»

ثانياً : شكل الخطاب المشترك عن «الغرباء»

يمتاز الخطاب اللبناني المشترك ضد «الغرباء» ، من حيث الشكل ، بسمتين رئيسيتين . السمة الأولى هي شكله التشهيري البدائي ، الذي يخاطب الحواس والعفوية ، لا العقل والمنطق . والسمة الثانية هي صيغته التعبوية . وتتضح هاتان السمتان عبر مجموعة من الآليات[٢٣] ، الخطابية ، يلجأ إليها المخاطب ، بوعي أو بلا وعي ، للتعبير عن هواجسه ، وتسجيل مواقفه ، والدعوة إلى التحرك في مواجهة «الغرباء» .

أ ـ يتضح الشكل التشهيري البدائي للخطاب المشترك ، من خلال غياب البرهنة والحجج ، لإثبات المقولات التي يتقدم بها المخاطبون ، وغياب التسلسل المنطقي في كلامهم عن «الغرباء» ، وبروز الأساليب الخطابية التالية :

ـ سلسلة من التأكيدات والتعميمات والمبالغات بصيغة الاتهام : «إن الغرباء هم . . . كذا وكذا . . .» ، «كل الغرباء هم . . أو فعلوا . . .» ، «جميع الغرباء هم . . . الذين فعلوا . . .» . والتعابير الشاملة مثل «للأبد» ، «بالعالم أجمع» ، والجمل القصيرة .

الجزم : «جاء يتحكم فينا» ، «بدوا يضل يشتغل لبلدو» ، «ليس مخلصاً» .

التعميم : «كل شي في مجرمين بالعالم موجودين في لبنان» ، «جميع الدول العربية دخلت» ، «العرب كلهم أشعلوا الحرب بلبنان» ، «مطلق شخص غريب» ، «كل إنسان غريب» ، «جميع القوات الغريبة» ، «كل يد غريبة» ، «طرف غريب» ، «كل الأغراب» ، «كل إجر غريبة» .

المبالغة : «الغرباء أكثر من اللبنانيين» ، «جحافل من الجيوش الغريبة» ، «ابن الوطن لا يمكن أن يؤذي وطنه» ، «لولا الغريب لكانوا اللبنانيين متفاهمين متحابين للأبد» .

ـ ويتجلى الطابع التشهيري المنفعل للخطاب ، عبر سلسلة من الأحكام المسبقة والاتهامات غير المسندة بإثبات أو حجة ، ويتجه أصبع الاتهام نحو الغريب ، عبر تعابير مثل : «هو الذي» ، «هم الذين» ، في الأمثلة التالية :

«هو (الغريب) اللي عطل دور الجيش» ، «هني (الغرباء) اللي لعبوا الدور الأساسي في تفجير الأوضاع» ، «هم السبب الجوهري للحرب الأخيرة» .

ـ ويحل الترداد مكان الإثبات ، لترسيخ الفكرة في ذهن المستمع المخاطَب ، وتوليد القناعة لديه في غياب البراهين . فتعاد صياغة الفكرة نفسها بأساليب مختلفة .

سبب الحرب : «هو سبب الحرب» ، «هو السبب الجوهري للحرب الأخيرة» ، «هو أداة التفجير الرئيسية التي أدت إلى الأحداث» ، «كان العامل الأساسي المباشر في تفجير الوضع» .

الكثرة : «موجودين بكثرة في لبنان» ، «كثافة أغراب أكثر من اللبنانيين» ، «الدخلاء إلى لبنان أصبحوا من الكثرة» ، «كثافة من الغرباء» ، «جحافل من الجيوش الغريبة» .

عدم انتماء «الغرباء» إلى الوطن : وتتكرر الكلمة نفسها والتعبير عينه ، مهما اختلف المتكلمون : «أشخاص من برا» ، «واحد يدخل من برا» ، «اللي هو براة وطنه» ، «ناس من برا» .

أو «واحد يدخل إلى لبنان» ، «الدخلاء إلى البلد» ، «داخل الوطن» .

أو «واحد مش من لبنان» ، «إللي هي مش لبنانية» ، «فئة لا تنتمي إلى الشعب اللبناني» .

عن الحاجة إلى القوة لمواجهتهم : «دولة قوية» ، «حكم قوي» ، «جيش قوي» ، «سلطة صارمة قوية» .

أسبقية الانتماء الوطني على الانتماء الطائفي فيما يتعلق بتحديد «الغرباء» .

«مهما كانت طائفته» ، «لأي طائفة انتمى» ، «حتى لو كان من طائفتي أو من طائفة ثانية» ، «أياً كانت طوائفهم» .

رفض وجود «الغرباء» في لبنان : «يجب إبعادهم» ، «يجب أن نبعدها عنا» ، «لنشيلن عن الأراضي اللبنانية» ، «ما بدنا غريب» ، «ما بدنا ياه بهاالبلد» ، «ما بدناياهم» .

ويظهر التكرار أيضاً ، عبر الآراء والصور المقَوْلبة (stereotype) التي تخص «النحن» اللبنانيين ، بقدر ما تخص «هم» «الغرباء» :

«كلنا في لبنان أخوة» ، «إسلام ومسيحية يد واحدة» .

«الغريب طمعان بها البلد» ، «اليد الغريبة هي اللي فجرت الأحداث» .

ب ـ تتضح الصيغة التعبوية للخطاب المشترك ضد «الغرباء» ، عبر الثنائية «نحن» مقابل «هم» ، وفي صيغ الأفعال الداعية للعمل ضد «الغرباء» وأفعال الرفض والنفي[٢٤] .

تتضح الثنائية المعاكسة في تركيز الكلام حول ذاتية المتكلم «أنا» ، التي تتسع باستمرار لتصبح «نحن» أو «نا» ، المشيرة إلى «اللبنانيين» أو «المواطنين» ، بصورة طاغية ، في مواجهة «هم» أو «هو» الآخر «الغرباء» أو «الغريب» .

«هو خراب إلنا» .

«ما في قواسم مشتركة تجمعنا به» .

«دمروا لنا بيوتنا» ، «سيطروا علينا» ، «يحطمونا» .

«صارت تشكل علينا هذه الأخطار القوية» ، «استغلنا» .

«تدخلوا ، حبوا يعملوا أشياء بيناتنا» .

«ما خلتنا نتقارب على بعض ، ما خلتنا نتحاكى» .

«لا نريد أن يحطنا شغيلة عنده» .

«نحن اللبنانيين يد واحدة ضد الغريب» .

«الغلطة إنو فوتناه على بلدنا ، فتحنا له الباب» .

«ما بدنا ياه بهاالبلد» ، «يجب أن تبعدها عنا» .

«لنحارب الوجود الغريب» .

وتتضح أكثر الثنائية المعاكسة ، عبر الأفعال ذات الدلالات المتعارضة ، المنسوبة إلى الطرفين : «إبن الوطن لا يمكن أن يؤذي وطنه» ، بينما «الغريب لا أتصور أن يكون مخلصاً لهذا الوطن» ، و«حابب يخرب البلد» .

ـ ويظهر أيضاً الشكل التعبوي للخطاب في صيغة الأفعال الداعية للعمل (performatifs) ضد «الغرباء» : (يجب . . . لـ . . .) فتتخذ صيغة الأمر ، كما في الأمثلة التالية :

«يجب على الدولة أن تنظف أرض لبنان منهم» .

«يجب محاربتهم» ، «يجب طردهم» ، «لنشيلن من بيناتنا» ، «يجب أن نبعدها عنا» ، «لنحارب الوجود الغريب» ، «براة لبنان» ، «لا يجب أن يعطوه رأساً الجنسية» ، «يفل عنا» .

أو صيغة الرفض أو عدم الإمكانية :

«ما بدنا الغريب بهاالبلد» ، «لا نقبل تفوت لعنا» ، «ما يجب ها الغريب يشتغل محل اللبناني» ، «ما بقدر اندمج أنا وياه» .

أو صيغة النفي (نفي التهمة أو نفي التعامل مع «الغرباء») :

«لا أدافع عنه» ، «لا أستعين به» ، «لا أؤمن به» ، «لا تربطه بي صلة وثيقة» .

خال من المنطق والبرهنة ، ترددادي ، مبالغ ، تعميمي ، إتهامي ، تعبوي ، تحريضيّ ، ومنفعل ، هذا الخطاب كان خطاب آلاف المواطنين اللبنانيين العاديين ، الذين كانوا ، في كلامهم اليومي ، يعيدون إنتاج أطروحات الخطاب اللبناني (أو الأيديولوجيا) العام ، المهيمن منذ الاستقلال ، والذي حاول ، في الأزمات الحادة ، التي اجتازتها البلاد في ١٩٥٨ ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٥ ـ ١٩٨٢ ، وكادت تقوض الكيان اللبناني ، حاول أن ينفي أو يطمس الانقسام الداخلي الطائفي ـ الاجتماعي ، ويلقي المسؤولية على العناصر الخارجية (مصر وسوريا في ١٩٥٨ والفلسطينيين في ١٩٧٣ ـ ١٩٨٢) المتوغلة أو المقيمة في الداخل ، في محاولة فاشلة لتوحيد اللبنانيين حول هذا الهدف السلبي .

إن غياب البرهنة والمنطق نابع من التناقض بين الانقسام اللبناني الداخلي (الطائفي) الفعلي ، القائم والمعيش ، والذي يحاول الخطاب طمسه ، والانقسام الداخلي ـ الخارجي (الغرباء) الذي يحاول هذا الخطاب ، أن يوحي بأنه سبب الحرب الرئيسي .

إن رفض الاعتراف بأن الانقسام اللبناني الطائفي ، هو سبب الحرب الفعلي ، واللجوء إلى التعبئة ضد «الغرباء» لإعادة اللحمة الوطنية الداخلية ، يولد خطاباً غير منطقي . فكلما ضعف المنطق وغاب الإثبات والحجة ، لجأ المتكلم إلى قوة التكرار والعنف الكلامي ، المتمثل في التعميم والأحكام المطلقة وصيغ الأفعال التعبوية ، النافية والقاطعة والآمرة .

وكما أن الخطاب اللبناني الاستقلالي العام ، عمل دائماً على البحث عن مسؤول وهمي عن الأزمات اللبنانية المتتالية ، فأطلق تارة «الأيدي الخفية» ، وتارة أخرى «الطابور الخامس» ، ولم يبحث البتة عن أسباب موضوعية لهذه الأزمات ، كذلك وجد بعض اللبنانيين العاديين ، في «الغرباء» ، كبش محرقة ، وسبباً لكل عللهم ، متمثلاً في أشخاص وأفراد ملموسين . فدقّ هذا الخطاب نفير التعبئة ضدهم ، ودعا جيرة «المواطنين الإخوة» المفككة ،

للتصدي لجيرة «الغرباء» الأعداء ، في محاولة وهمية لتوحيد اللبنانيين على أساس وطني .

ثالثاً : الأنماط الثلاثة في الخطاب المشترك حول «الغرباء»

إذا أعدنا تجميع عناصر الخطاب المشترك ، وترتيبها بشكل آخر ، يمكن أن نكتشف ثلاثة أنماط مختلفة ، تتواجد أحياناً لدى المتكلم نفسه ، وهي النمط الخطابي ، المعادي لـ «الآخر» (xénophobe) المهيمن ، والنمط السلبي الاحتوائي ، والنمط الأقلوي الإيجابي :

النمط الخطابي المعادي لـ «الآخر» (xénophobe)

يتميز هذا النمط المهيمن في الخطاب المشترك حول «الغرباء» بتقبيحهم إلى أقصى حد ، وتجميل المجموعة الوطنية ، وتقديسها ، عبر سلسلة من الأحكام العامة غير المسندة ، والتأكيدات المطلقة ، والتعميمات الشاملة : «عملاء للخارج» ، «مجموعات مسلحة مهددة» ، «مجرمين» ، «قتلة» ، «مخربين» ، «السبب الرئيسي للحرب الأهلية» ، «يطمح الغرباء إلى استلام السلطة وسلب الوطن» . في المقابل ، هناك عملية تجميل لمجموعة المواطنين اللبنانيين ، يصفهم الخطاب «بالإخوة في العائلة الواحدة» ، «متحابين إلى الأبد» ، «متحدين كاليد الواحدة» ، «لا يمكن أن يؤذوا وطنهم» ، «لبنانيين أصليين» ، ذلك أن «الطائفية من إنتاج الغرباء» .

وإن كل المحيط العربي ، يكن العداء لهم ، الأقلية المهددة من قبل «الغرباء» المرسلين من الدول المجاورة . لا إمكانية تعايش ، ولا هدنة بين المجموعتين ، فيدعو هذا النمط المعادي ، جميع اللبنانيين إلى طردهم ، وإلغاء وجودهم ، بل اضطهادهم ، و«تنظيف» أرض الوطن منهم .

إن هذا النمط الخطابي شبيه بما أسماه P. Taguieff «العنصرية البدائية والثانوية» ، مع أن وصفه بالعنصرية ، ليس مناسباً ، لخلائه من نزعة الاحتقار .

ويعرف Taguieff العنصرية البدائية ، أو كره «الآخر» ، بموقف من عدم الثقة ، وحتى الكراهية تجاه كل «غريب» والدفاع عن الذات ، والتعاون الأقصى بين أعضاء جماعة الانتماء .

كما يعرف العنصرية الثانوية بموقف مانوي (manichéen) ، يرى في «الغرباء الأشرار» ، ما يبرر كل أعمال التعدي والاضطهاد والإقصاء «تجاههم ، من قبل مجموعة الصالحين (المواطنين) الإنسانيين الحقيقيين الوحيدين ، المتازين ، الكاملين»[٢٥] .

وتبلغ ، هنا ، المواجهة بين الفريقين حدها الأقصى ، وجود أو لا وجود . فإما أن يلغي المواطن وجود «الغريب» ، لتأكيد وجوده (الوطني والطائفي) ، أو سيقوم «الغريب» بإلغاء وجود المواطن ، لإقامة دولته الخاصة وسلب الوطن من مواطنيه .

النمط الخطابي السلبي الاحتوائي

يوزع هذا النمط مسؤولية أحداث الحرب ، بين «الغرباء» واللبنانيين . فانقسام اللبنانيين على أنفسهم ، ووجود الطائفية ، هما السبب الأساسي للحرب . لعب «الغرباء» دوراً مساعداً في تفجيرها ، كما ساهم اللبنانيون ، بضعفهم وانقسامهم ، في تقوية «الغرباء» ، الذين تحالفوا مع فئة منهم ضد فئة أخرى .

إن غاية «الغرباء» في لبنان ، في رأي هذا الاتجاه ، هي إيجاد هوية لأنفسهم ، والمحاربة من لبنان لاسترجاع وطنهم (فلسطين) . يعمل البعض على فتح مصالح ، والاستفادة الاقتصادية ، وكسب المال (المشاركة في الربح) والانتقادات الموجهة إليهم ، هي الإخلال بالأمن الاجتماعي ، عدم تطبيق القانون ، و«التجاوزات» . وقد ساعدهم على ذلك بعض الزعماء المرتشين ، وضعف الدولة ، بالإضافة إلى التدخلات الخارجية ، من قبل بعض الدول العربية المتطرفة ، وبعض الأحزاب ، في الداخل .

لا يرفض هذا الاتجاه التعايش مع «الغرباء» ، إنما يدعو إلى تنظيم العلاقة معهم ، بضبط عددهم ، وتطبيق القانون والنظام على جميع المقيمين في لبنان (غرباء ومواطنين) ، وتجنيسهم ، لكن بعد مدة طويلة . وذلك عبر إقامة دولة قوية ، وجيش قوي ، يسيطران على كل الأراضي اللبنانية . هذا الخطاب حذر تجاه «الغرباء» ، ولكن غير عدائي .

يعبر هذا النمط عن العقلية اللبنانية ، المنفتحة على الجيرة العربية ، ولكن ليس على حساب السيادة الوطنية ، وهي قابلة للتعايش مع الغير ، ولكن بشرط سيادة القانون اللبناني ، واحترام القانون والنظام ، من قبل «الغرباء» ، أسوة باللبنانيين .

وانطلاقاً من اعترافه بعدم قدرة الدولة والنظام الحالي على تطبيق النظام ، والسيطرة على «الغرباء» ومواجهتهم ، يدعو هذا النمط الخطابي إلى إقامة دولة قوية وجيش قوي ، يبسطان سيطرتهما على كل الأراضي اللبنانية ، «وعلى الغريب والقريب» ، «وكل مواطن يعيش على أرض لبنان أغريباً كان أم عربياً أم أجنبياً أم لبنانياً» . ويدعو إلى «معاملة الغريب مثل ابن البلد ، وتطبيق النظام على أساس السكن المشترك» .

خطاب أقلوي إيجابي تجاه «الغرباء»

لم نذكره ، فيما سبق ، بسبب ندرته في المقابلات . يتميز هذا الخطاب المشترك بالنظرة الإيجابية إلى «الغرباء» و«الأجانب» . يدعو ، من منطلق إنساني عام ، إلى المحبة والتفاهم بين الناس والأخوة الإنسانية :

«أقرب إنسان لي أكان أجنبي أو عربي هو الإنسان الذي يفهمني ويقدر أفهمه هذا الإنسان أعدّه قريب ، يمكن أن ألتقي به ونلتقي ببعضنا» .

«أنا أتأثر وأتوجع لكل الناس ، أكان غريب أو قريب ، هو إنسان أخو الإنسان ، إذاً هو أخي وحبيب قلبي» .

وهذا الخطاب ، إن لم يكن معادياً للانتماء الطائفي أو الديني ، إلا أنه معاد بشدة للعائلية ، التي يعتبرها أساس العداء تجاه «الغريب» . يمكن الاستنتاج أن نظرته الإنسانية إلى «الغريب» نابعة من إيمانه بالله ، كما يعبر عنه في الكلام التالي :

«واحد الله خلقه أجنبي وأنا عربي ، ليش بدي كون ضده» .

وعلى الرغم من محدوديته وانحصاره ، يتصدى هذا الخطاب الأقلوي للخطاب الآخر ، المعادي لـ «الغرباء» ، وينسف مفهوم الغربة من أساسه ، ومن منطلق تاريخي ، فيجعل الغربة والمواطنة شيئين نسبيين ، مرتبطين بقدم الإقامة .

«الذين يقولون غرباء هني بحد ذاتهم كانوا غرباء يوماً من الأيام وصاروا منتمين لها البلد هيدا ، حتى الموارنة ، حتى نحن كإسلام سنة» .

IV. تنوع الخطاب حول «الغرباء» حسب انتماء المتكلمين وموقعهم

إذا كان الخطاب المشترك ، بين المتكلمين عن «الغرباء» ، هو السائد ، فإن المتغيرات الخمسة ، التي تحدد موقع المتكلمين وانتماءاتهم (الطائفية والسكنية والمهنية والجغرافية والجيلية) ، تؤثر بشكل ثانوي ، ولكن كاف لإحداث تنوع في كلامهم عن «الغرباء» . لا يؤدي هذا التنوع إلى وجود خطابات مختلفة ، بقدر ما يحدث تنوعات (variantes) في الخطاب اللبناني حول «الغرباء» .

تنوع الخطاب عن «الغرباء» تحت تأثير انتماء المتكلمين وموقعهم

(طائفة ، ومستوى اجتماعي ومهني ، ومكان إقامة وأصل ، وسن)

ننظر ، فيما يلي ، إلى تأثير[٢٦] (تقاطع) مواصفات من يقول على ما يقوله ، من حيث :

حجم الخطاب ومدى تفصيل الأفكار وبلورتها .

تأثير ذلك في محتوى الخطاب .

أولاً : تنوع الخطاب عن «الغرباء» ، من حيث الحجم تحت تأثير المتغيرات الخمسة (للمحقق معهم)

لا نقصد بالحجم تكرار كلمتي «غريب غرباء» (Fréquence) في الخطاب ، أو ترداد الجملة أو الفكرة أو الأطروحة نفسها عن «الغرباء»[٢٧] ، وإنما نقصد به اتساع حقل دلالة «غريب ، غرباء» ، في المقابلات ، وتأثير انتماء وموقع المتكلمين في حجم الخطاب . وبتعبير آخر ، ما هي السمات الرئيسية للوسط

(فئة من يتكلم) الذي يتخذ فيه الخطاب عن «الغرباء» مداه الأوسع ، من حيث حجم الكلام وتفصيل الأفكار وتحديدها؟

يتواجد الخطاب الأكثر اتساعاً وتفصيلاً عن «الغرباء» ، لدى متكلمين من الطوائف الثلاث (المارونية والشيعية والسنية) مع أرجحية مارونية ، من حيث طول الكلام وبلورته . وهذا الوضع شبيه بالتوزيع العددي الطائفي للمتكلمين عن «الغريب» ، حيث رأينا أن نسبة المتكلمين عن «الغرباء» متساوية بين الطوائف الثلاث ، مع أرجحية مارونية قليلة .

أما إذا أخذنا بمتغير السن ، فنرى أن الخطاب الأكثر اتساعاً ، يتواجد لدى أفراد من كل الأعمار ، تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والستين سنة ، ولكن مع فارق طائفي ملحوظ . فالموارنة ، الأكثر تكلماً عن «الغرباء» ، هم أكبر سناً عن الآخرين ، إذ تتراوح أعمارهم بين ٥٠ و٦٠ سنة ، والسُّنة ذوو عمر متوسط ، يتراوح بين ٣٠ و٤٠ سنة ، والشيعة أصغر سناً بين ٢٩ و٣٢ سنة .

فيبدو أن الخطاب الأكثر اتساعاً عن «الغرباء» ، موجود لدى الجيل القديم من الموارنة ، والجيل الشاب من الشيعة ، الذي بلغ سن العشرين عشية الحرب ، ولدى متوسطي العمر من السنَّة ، الذين ولدوا وكبروا في ظل دولة الاستقلال . هل لهذا التفاوت في السن دلالة؟ ربما ، إذا اعتبرنا أن ظهور أيديولوجية المواطنة اللبنانية ، واعتناقها من قبل اللبنانيين ، يختلف باختلاف الطوائف ، فهو أقدم لدى الموارنة ، ومواكب لمرحلة ما بعد الاستقلال لدى السنَّة ، وأحدث عهداً لدى الشيعة . هذه مجرد محاولة تفسير ، من قبلنا ، تتحمل أكثر من نقاش . ويختلف هذا الوضع نوعاً ما عن توزيع نسبة المتكلمين عن «الغرباء» ، حسب السن ، إذ رأينا أنها ترتفع بارتفاع سن المتكلمين (وتنخفض بانخفاضه) .

أما فيما يتعلق بالوسط المهني والمستوى الاجتماعي للمحقق معهم فيظهر الخطاب الأكبر حجماً عن «الغرباء» ، في وسط مهني مكون من حرفيين ،

وصغار التجار ومتوسطيهم . وهذا الوضع شبيه بالتوزيع العددي للمتكلمين ، حسب المهنة والمستوى الاجتماعي ، حيث رأينا أن نسبة المتكلمين أكبر في الوسط الحرفي ، ولدى الفئات الاجتماعية الوسطى والفقيرة ، ومتساوية تقريباً في القطاعات الاقتصادية الثلاثة (زراعة ، صناعة ، خدمات) .

وأخيراً ، إن مكان الإقامة لأصحاب الخطاب الأكبر حجماً عن «الغرباء» ، هو ضاحية بيروت ، إقامة قديمة تعود لأكثر من ٢٥ سنة ، ولكن لأناس من أصل ريفي . وهذا الطابع شبيه بالتوزيع العددي للمتكلمين عن «الغرباء» ؛ إذ النسبة الأكبر هي لدى المقيمين في الضاحية قديماً ، ومن أصل ريفي .

وخلاصة ، يمكن الاستنتاج أن اللبنانيين ، الأكثر استعداد للتكلم بإسهاب عن «الغرباء» ، من الأرجح أن يكونوا حرفيين أو تجاراً صغاراً ومتوسطين ، مقيمين في ضاحية بيروت منذ أكثر من ٢٥ سنة ، ولكنهم من أصل ريفي ، ويمكن أن يكونوا من الطوائف الثلاث ، وإنما أكبر سناً ، إذا كانوا موارنة (بين الـ ٥٠ و٦٠) متوسطي العمر إذا كانوا سنَّة (بين الـ ٣٠ و٤٠) وأصغر سناً ، إذا كانوا شيعة (بين الـ ٢٠ و٣٢) .

ثانياً : تنوع محتوى الخطاب عن «الغرباء» ، تحت تأثير انتماء المحقق معهم وموقعهم

سنبحث هنا بالتقاطع النوعي بين من يقول وما يقوله . ننطلق من المتغيرات الأكثر تأثيراً في محتوى الخطاب عن «الغرباء» ، إلى المتغيرات الأقل تأثيراً . سوف نركز فقط على ما يميز هذا النوع من الخطاب ، مثلاً الخطاب السني من الخطاب الشيعي ، أو خطاب الحِرفي من خطاب موظفي القطاع العام .

يبدو أن المتغير ، الأكثر تأثيراً في محتوى الخطاب ، هو المتغير الطائفي ، يليه مكان الإقامة ، ومن ثم الوضع المهني ، إلى الأقل تأثيراً ، وهو عامل السن[٢٨] .

أ ـ مدى تأثير الانتماء الطائفي للمحقق معهم في محتوى خطابهم عن «الغرباء»

١ ـ **يتميز الكلام الماروني** (أي كلام المحقق معهم من الطائفة المارونية) حول «الغرباء» ، عن كلام المنتمين إلى الطوائف الأخرى (السنية والشيعية) ببروز «الغريب» فيه ، المعنى القديم ما قبل الوطني وغيابه عن الكلام السني والشيعي . وتظهر فيه كل المعاني القديمة لـ «الغريب» : الذي لا ينتمي إلى العائلة أو العشيرة (لا صلة دم) ، الذي لا ينتمي إلى المحلة أو القرية (لا صلة جيرة) والغريب ، بمعنى أحدث ، الذي لا ينتمي إلى الدين نفسه ، أي هو من دين آخر وإن كان لبنانياً . والجدير بالذكر ، أن الكلام الماروني عن «الغريب» ، بهذا المعنى الأخير ، لا يخص «الآخر» ، ذلك أن كل الأمثلة المذكورة تخص الذات («أشعر بنفسي غريبة في الحي الذي ليس من ديني») . ويعود هذا الشعور بالتهديد في وسط من دين آخر ، ليظهر بشكل آخر في الكلام الماروني ، عندما يتهم «الغرباء» بالعمل على «إقامة دولة عنصرية عربية إسلامية» ، لا مكان للمسيحيين فيها . و«الإنسان إذا خرج من عيلتو ، ومن أصلو ، ومن بيئتو ، من مطرحو ، بصير غريب عن وطنو» .

وفي حين أن الكلام الشيعي والسني على «الغرباء» ، يؤكد على المعنى الحديث لـ «الغريب» (غريب عن الوطن) (غريب لا لبناني) دون تفصيله ، يقدم الكلام الماروني تعريفاً به ، بصيغة النفي ، مقارنة بالمواطنين اللبنانيين : «لا قواسم مشتركة تجمعنا به ، لا مصير مشترك ، لا وطن مشترك ، لا تاريخ مشترك ، لا حضارة مشتركة ، لا شيء أبداً» .

يتميز الكلام الماروني ، أيضاً ، عن سواه ، بالنظرة الاجتماعية ـ الاقتصادية المزدوجة إلى «الغرباء» .

فمن الناحية الاجتماعية ، ينظر إليهم كعناصر فقيرة محرومة ، ومن ثم خطيرة ، لأن الفقر يولد الحقد ، وربما الحسد : «العناصر الغريبة الأجنبية التي

أتت إلينا حاملة الفقر والحرمان والحقد على الذين طردوها من بلادها» (الفلسطينيون ـ إسرائيل) . والأخطر من ذلك ، أنها حازت تأييد أعداء الداخل ، وهم من الناحية الاجتماعية «الشعب الضعيف يللي ما بيفهم» ، و«المجرمين» ، و«العصابات» و«كل شي في مجرمين بالعالم» ، «الذين أصبحوا» في لبنان . أما من الناحية السياسية ، فهم قد نالوا تأييد ومساعدة «اليسار» ، العدو الأيديولوجي .

ومن الناحية الاقتصادية ، فهو ، بالعكس ، يرحب بـ «الغريب» ، إذا كان متمولاً ، «جاء ليفتح مصالح ، أو ليتاجر» ، «شرط أن يكون اللبناني شريكه الأهم» ، فيرفض أن يضارب على اللبناني ، أو ينافسه .

وخلافاً ، أيضاً ، للطائفتين الأخريين ، لا يرى الكلام الماروني «الحل» في دولة قوية أو «جيش قوي» ، يسيطر على «الغرباء» ، وإنما يدعو للتصدي لهم ، إلى العمل من أجل «الوحدة الوطنية» ، و«علمنة البلد» ، و«الثورة الداخلية» من دون تحديد محتواها . والكلام الماروني ، كالكلام السني ، يتراوح بين نمط خطابي عدائي ، ونمط سلبي احتوائي ، ونمط إيجابي ، وما يميزه عن السُّني ، في هذا الإطار ، هو تطرفه في الأنماط الثلاثة :

فالكلام الماروني ، المعادي لـ «الغرباء» ، شديد التطرف ، يدعو إلى «اضطهادهم» ، وطردهم ، ويستعمل تعبيراً شديد الاحتقار ، فهو يدعو إلى «تنظيف أرض لبنان منهم» .

أما في الكلام الاحتوائي ، فيذهب الماروني ، دون سواه ، إلى حد القبول بالتجنس ، ولكن ضمن شرطين ، بعد مدة طويلة ، «ليس فوراً» ، وتحديد نسبة «الغرباء» إلى ٦ و٧٪ من السكان .

كذلك ، يظهر التطرف في كلام هذا المزارع الماروني الإيجابي تجاه «الغرباء» ، إذ يعبر عن نزعة إنسانية مثالية ، و«محبة» مفرطة ، فيذهب إلى حد

القول : «هذا هو أخي وحبيب قلبي» ، ويحمل «الغريب» شعوراً مماثلاً تجاهه : «أشعر أنه يريد أن يشق قلبه ويضعني في داخله» .

فمن العدائية المفرطة ، إلى المحبة الإنسانية المفرطة ، إلى القبول بالتجنس ، لا شك أن الكلام الماروني على «الغرباء» هو شديد التناقض والتطرف . يظهر في ثناياه خوف الأقلية من الضياع ، في محيط «غريب» ، تشعر أنه معاد لها ولنزوعها إلى الانفتاح الإنساني ، وحب «الآخر» إلى أقصى الحدود .

٢ ـ يتميز الكلام الشيعي بنظرة عائلية إلى اللبنانيين ، في مواجهة «الغرباء» ، ولا يعرف عن «القواسم المشتركة بين اللبنانيين» إلا سلباً ، باختلاف عقلية «الغرباء» عن «عقلية اللبنانيين» .

ويركز الكلام الشيعي على الرابطة العائلية ، التي تشد اللبنانيين إلى بعضهم ، في مواجهة «الغريب» ، «أنا وأهلي وجيراني» ، «كلنا في لبنان أخوة» ، وبالتشديد ، أكثر من سواه ، على وحدة اللبنانيين في مواجهة «الغرباء» . نحن اللبنانيين يد واحدة «وطن واحد» .

ويبرز في الكلام الشيعي مخاوف اقتصادية واضحة ، تجاه «غرباء» أصحاب أموال ، آتين من الخارج ، يسعون إلى تحقيق «مصالحهم فقط» واستغلال اليد العاملة الشيعية على الأرجح ، فيرفض المتكلم الشيعي أن يكون مستغلاً من قبل «غريب» : «لا نريد أن يأتي ويقعد يشتغل ويحطنا شغيلة عنده» . وخلافاً للمتكلم الماروني ، لا يتصور المتكلم الشيعي ، أن في وسعه أن يشارك الغريب في التجارة أو المصالح ، فهو إذا كان متمولاً ، يخشى منافسة المتمول «الغريب» ، وإن كان فقيراً ، يخشى استغلاله ، ويصرح بأن «النظام الاقتصادي الحر لم يوضع للغرباء» ، وإنما للبنانيين فقط . ويتضح ، هنا ، السلوك الاقتصادي الشيعي ، الذي يتسم بالضعف المادي ، وعدم الاعتياد على ممارسة نشاط اقتصادي ذي طابع مديني حديث ، فهو دفاعي يسعى إلى الحماية الذاتية من «الغرباء» المتمولين باسم المواطنة اللبنانية .

ونفهم ، بعد ذلك ، أن النظرة الاجتماعية المتعالية أو الطبقية ، تجاه «الغرباء» ، غائبة عن الكلام الشيعي . ليس الخطر من «الغرباء» ، لأنهم «فقراء» ومتحالفون مع المجرمين واليسار ، أعداء الداخل ، كما في كلام بعض المتكلمين الموارنة ، وإنما الخطر من كونهم «مسلحين» . وهنا ، يشدد الكلام الشيعي على خطر «الغرباء» المسلحين ، أكثر من خطر «الوجود الغريب» بحد ذاته .

وعلى خلاف خطاب المتكلمين الموارنة والسنة ، الموجه أبداً ضد «الآخرين» ، يوجه المتكلمون الشيعة ، في أغلب الأحيان التهمة إلى أنفسهم : «نحن اللبنانيين» سمحنا لـ «الغرباء»أن يفعلوا ما فعلوه :

«نحن عدم احترامنا للقانون» .

«نحن كلبنانيين فتحنا المجال لهذه الشغلات» .

هل هذه آثار لعقدة الذنب التاريخية ، التي تعود لتبرز ، لدى الطائفة الشيعية ، في فترات الأزمات الحادة والكوارث الجماعية؟

وإذا كان الكلام الشيعي ، كالماروني ، يتهم «جميع الدول العربية» بمساعدة «الغرباء» ، إلا أنه يضيف إليها (على عكس الموارنة) الدول الأجنبية «أميركا ، أستراليا ، إسرائيل» وكافة «الأجانب» ، فكل القوى الخارجية ، عربية كانت أو غير عربية ، هي متهمة .

وتختلف مخاوف المتكلمين الشيعة عن المخاوف المارونية ، فيما يتعلق بالوطن . فهم لا يخشون طبيعة الدولة أو النظام ، الذي سيفرضه «الغرباء» ، إذا استولوا على السلطة ، بل يخشون أن يسلب «الغرباء» وطنهم وهويتهم («أن يوجد نفسه على الأرض اللبنانية ويعمل هوية له») ، وهم الذين لم يعوا انتماءهم الكامل إليهما ، إلا منذ زمن ، ليس ببعيد . وحدها «دولة قوية

مركزية» و«جيش لبناني مسيطر على جميع الأراضي اللبنانية» ، كفيلان بحماية الوطن من الأخطار ، الداخلية والخارجية ، التي تهدده .

إن خشية سلب الوطن من قبل «الغرباء» ، ورفض استغلالهم الاقتصادي ، وإدراك مدى ضعف الدولة وعجزها ، قد تُفسر غياب النمط الإيجابي في الكلام الشيعي عن «الغرباء» . فإن دخول الشيعة ، الحديث نسبياً ، في الصيغة السياسية اللبنانية ، وسعيهم المحموم لتحسين موقعهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في لبنان ، والانتقال من موقع الهامشيين إلى موقع المشاركين الفعليين في السلطة ، قد تُفسر عدم استعدادهم لاستيعاب «الآخرين الغرباء» غير اللبنانيين ، في هذه المرحلة بالذات ، إذ تنصب كل جهودهم على جعل النظام والوطن يستوعبانهم هم أنفسهم ، كلبنانيين ، وبصورة كاملة ومتساوية مع اللبنانيين الآخرين . لذا ، لا يبرز ، في كلامهم عن «الغرباء» ، سوى النمطين السلبيين من الخطاب : العدائي ، الرافض لوجود «الغرباء» في لبنان ، والداعي إلى إخراجهم («تفل عن بلادنا» «براة بلادي» «براة لبنان») ، ورفض دخولهم («لا نقبل تفوت لعنا») ، والنمط السلبي الاحتوائي ، الذي يبدو خجولاً ومتشائماً في كلامهم على «الغرباء» . فهم يؤكدون على عجز الدولة عن السيطرة على «الغرباء» ، وتنظيم العلاقة معهم حسب القوانين اللبنانية :

«لا تستطيع الدولة تنظيم العلاقة مع هؤلاء» .

«ما في قوة تضبطهم كما يجب حسب القوانين الموجودة عنا» .

٣ ـ يتميز الكلام السني على «الغرباء» بتعريف مقتضب بـ «الغريب» من دون الدخول في متاهات القواسم غير المشتركة أو العقلية المختلفة .

فـ «الغريب» ، في الكلام السني ، هو «غير اللبناني» فقط ، وتبرز فيه ، بوضوح أكثر من الكلام الماروني ، النظرة الاجتماعية الفوقية تجاه «الغرباء» ، الذين وصفوا كيد عاملة ، منافسة لليد العاملة اللبنانية «كالعمال المصريين» :

(«لا نريد أن يشتغل في لبنان محل اللبناني») ، ويلاقون في الداخل تعاطفاً من الفئات الفقيرة ، غير المتعلمة : («يؤيدهم اللبنانيون غير المتعلمين نصف الأميين») . وبالإضافة إلى هذه النظرة الاجتماعية الدونية ، لا يذكر الكلام السني «الغرباء» الأغنياء ، ولا يخشى نشاطهم التجاري أو منافستهم المحتملة ، كما في الكلام الماروني أو الشيعي ، ربما لأن الخطاب السني ، لا ينظر إلى هؤلاء كـ «غرباء» ، وإنما كمقيمين من أصل عربي ، ينتمون ، على الأرجح ، إلى الطائفة نفسها ، ويتم التعامل معهم على مستوى آخر ، مرتبط بالمصلحة التجارية أو المالية .

ويفضل المتكلمون السنَّة اتهام «الدول الخارجية» ، بمساعدة «الغرباء» ، دون تحديد هويتها ، ولا يذكرون أسماءها ، ولا يستخدمون صيغة الجمع ، كما في الكلام الشيعي أو الماروني . فلا تبرز ، في كلامهم ، عبارة «الدول العربية» ، إلا بشكل عابر ، وبمحاذاة «الدول الأجنبية» ، التي فجرت صراعاتها في لبنان . ولا يحدد الكلام السني هوية «الغرباء» والدول المساعدة لهم ، إلا بشكل حصري ، كأنما هناك تردد أو خجل لديه ، باعتبار «العربي» «غريباً» ، أو الدول العربية دولاً مساعدة «للعنصر الغريب» في «تخريب لبنان» . ولا تبرز ، هنا ، عقدة الأقلية تجاه المحيط العربي «الغرباء» المنبثقين منه ، والذين ينتمون ، في معظمهم ، إلى الأكثرية الإسلامية السنِّية .

فالكلام السني ، لا يحمل «الغرباء» هواجس الطوائف الأخرى الأقلية ، على المستوى العربي ، كتغيير النظام أو إقامة دولة أو سلب الوطن أو إقامة هوية غريبة على أراضيه ، ولا نجد فيه ذكراً لأي مشروع خطير ، يهدد كيان الطائفة السنِّية أو وجود الوطن ، فـ «الغرباء» متهمون فقط بالعمل للخارج .

ويشدد الكلام السني ، أكثر من الشيعي ، على أن الحل ، هو في «دولة قوية» تتمتع بكامل سلطتها على جميع الأراضي اللبنانية ، و«جيش قوي» وهو لا يرى سواهما ، في مواجهة «الغرباء» ويأتي هذا التركيز ، المستمر

والمكرر ، على ضرورة وجود دولة قوية وسلطة الدولة «وحكم صارم قوي» ، في كلام غالبية المتكلمين السنَّة (بخلاف الطوائف الأخرى ، إذ لا يرد أبداً في الكلام الماروني ، وقليلاً ما يرد في الكلام الشيعي) . فالقوة الوحيدة القادرة ، في نظرهم ، على التصدي لـ «الغرباء» وربما القادرة أكثر من ذلك على خلاص الوطن ، هي الدولة القوية . ويذهب الخطاب السني إلى حد الإعلان أن «دولتنا هي كل شيء» و«أن لبنان فوق الجميع» .

على غرار الكلام الماروني ، تبرز في الكلام السني الأنماط الثلاثة في الخطاب ، تجاه «الغريب» ، العدائي الرافض لوجوده ، ولكن بدون تطرف ؛ والاحتوائي الداعي إلى تنظيم العلاقة معه ، على أساس التسوية أمام القانون لكل المقيمين على أرض لبنان ، مهما اختلفت جنسياتهم ؛ والإيجابي الرافض ، بشكل جذري ، لمفهوم «الغربة» ، والذي يعتبر أن المواطنة شيء نسبي وتاريخي ، وليس جوهراً مطلقاً وجامداً .

ب ـ مدى تأثير مكان الإقامة والأصل الجغرافي في محتوى الكلام على «الغريب»

١ ـ تظهر نقاط التمايز بين الكلام على «الغرباء» ، **ممن هو من أصل ريفي ومقيم في الضاحية** من جهة ، والكلام **على من هو من أصل مديني ومقيم في المدينة** من جهة ثانية . ويختلف عن الاثنين في بعض الجوانب الثانوية ، الكلام على «الغريب» **ممن هو من أصل ريفي ومقيم في الريف** (وهو قليل التمثيل في العينة) .

يختلف كلام سكان الضاحية الجنوبية (ضاحية بيروت ، بصورة خاصة) ومن أصل ريفي عن كلام سكان المدينة أو الريف ، بعدائه الشديد البدائي لـ «الغريب» ؛ إذ تسود في كلامهم النظرة إلى «الغريب» بالمعنى ما قبل الوطني ، أي الخارج عن دائرة الأقرباء أو الجيرة أو القرية أو الطائفة والدين ، والدعوة إلى

التضامن ضده ، على أساس الرابطة العائلية والجيرة ، لا المواطنة . وانطلاقاً من هنا ، يتهم «الغرباء» بالتحالف مع أعداء الداخل (كالعصابات والمجرمين) والقيام بكل أنواع الأعمال المخلة بالأمن الاجتماعي ، كعدم احترام القانون ، والإجرام ، من خطف وقتل وعربدة وتدمير وتخريب .

وفي السياق نفسه ، يشعر الضاحويون من أصل ريفي ، بتهديد «الغرباء» الأغنياء ، إما باستغلالهم كيد عاملة ، وإما بإمكانية الاستفادة من النظام الاقتصادي الحر ، الذي لم يوضع لأجلهم . أما البعض الآخر ، فيشترطون لذلك مشاركتهم في الأعمال التجارية ، على الأرجح . ولا عجب ألا نجد ، لدى هذه الفئة ، إلا النمط الخطابي ، الأكثر عدائية تجاه «الغرباء» ، الداعي إلى إلغاء وجودهم وطردهم (تنظيف أرض لبنان منهم) بسبب عدم إمكانية أو رفض التعايش معهم والاندماج فيهم .

٢ ـ على نقيض السابق ، يظهر كلام معظم سكان الريف (ومن أصل ريفي) إيجابياً ، تجاه «الغرباء» ومنفتحاً ، من منطلق إنساني وغير مفضل المواطن على «الغرباء» ، فالأعمال وحسن المعاملة هما المعيار ، في نظر ابن القرية . ويذهب بعض الريفيين إلى رفض مفهوم «الغربة» ، واعتبار المواطنة ، في لبنان ، شيئاً نسبياً ، إذا عدنا للتاريخ . فيبدو ، إذاً ، أن الحذر القديم من «الغريب» أو «الغرباء» ، أخذ يتلاشى بعض الشيء ، في القرية اللبنانية ، خاصة أن مكان إقامة المدعوين «غرباء» في لبنان (فلسطينيين أو سوريين) بعيد عن القرى اللبنانية والمناطق الريفية ، وهم ، استطراداً ، لا يشكلون خطراً مباشراً على سكان الريف .

أما إذا انتقل ابن القرية إلى ضاحية المدينة ، وسكن هناك ، وعايش «الغرباء» لمدة طويلة ، فإن نظرته الإيجابية ، المنفتحة ، الإنسانية ، تنقلب ، في معظم الأحيان ، إلى نفور ، ثم عداء ، وربما عدوانية كما رأينا في النموذج السابق .

يمكن أن نستنتج من ذلك ، أن النظرة الإيجابية إلى «الغرباء» والمملوءة بالمحبة أحياناً ، لا تدوم طويلاً ، إذا انتقل الريفي إلى المدينة ، وعاش قرب تجمعات كبيرة من غير اللبنانيين ، في جو أزمة اقتصادية وسياسية ، نسبت فيها معظم الأعمال السلبية والمخلة بالأمن إلى هؤلاء غير اللبنانيين ، الذين عوملوا ، إعلامياً وواقعياً ، ككبش المحرقة . ويبدو أن مجرد القبول بثنائية مواطن/ «غريب» ، يدفع إلى تغير الموقف ، من إيجابي إلى سلبي ، أو العكس ، إذا تغيرت الظروف الاجتماعية والسياسية .

٣ ـ يختلف كلام المقيم في المدينة (ومن أصل مديني) عن النموذجين السابقين ، باقتصاره على تحديد «الغرباء» بالمعنى الحديث ، أي نسبة إلى الوطن ، وبتحديد شروط المواطنة (مصير ، وطن ، تاريخ ، وحضارة مشتركة) ، وبالنظرة الاجتماعية الطبقية إلى «الغرباء» والفئات الشعبية «الضعيفة» المتضامنة معهم ، وهو تصور مناف للواقع ، يعكس أيديولوجية طبقية ، سائدة لدى الفئات المدينية المتوسطة والموسرة ، التي لا تشعر بتهديد «الغرباء» الاقتصادي ، كما هو الأمر لدى سكان الضاحية .

وباختلاف النموذجين السابقين ، الضاحوي الشديد العدائية ، والريفي الإيجابي ، يتميز النموذج الخطابي المديني بنزعتين سلبيتين : الأولى عدائية قريبة من النموذج الضاحوي . والثانية ، معتدلة السلبية ، تدعو إلى احتواء «الغريب» وتنظيم العلاقة معه ، على أساس ضبطه تحت سلطة الدولة والقانون (شرط أن تكون الدولة قوية) وذلك أسوة بأوضاع سائر المواطنين اللبنانيين .

ج ـ مدى تأثير الوضع الاجتماعي المهني في محتوى الكلام حول «الغرباء»

ليس للوضع المهني والقطاعي ، والمستوى الاجتماعي للمتكلمين ، تأثير متميز في محتوى الخطاب حول «الغرباء» ، فيما عدا فئتي صغار ومتوسطي التجار والحرفيين ، اللتين يتميز خطابهما عن الفئات المهنية والاجتماعية الأخرى بما يلي :

تحمل الفئتان مخاوف اقتصادية واجتماعية حيال «الغرباء» : الخوف من المنافسة ، إذا عمل «الغريب» تاجراً ، إلا إذا كان «اللبناني شريكه الأهم» في ذلك ، الخوف من استغلاله لليد العاملة اللبنانية ، إذا فتح مصلحة «لا نريد أن يحطنا شغيلة عنده» والخوف من منافسة اليد العاملة الغريبة للعامل اللبناني .

هذه المخاوف الاقتصادية والاجتماعية ، تجاه «الغرباء» ، سواء أفقراء كانوا أم أغنياء ، لا تتعارض مع النظرة الطبقية للمجتمع اللبناني ، إذ يرى بعض المتكلمين في هذه الفئة ، أن «اللبنانيين الأميين» يدعمون «الغرباء» ، ويرى البعض الآخر ، أن «الشعب الفقير في الجنوب يعارضهم» .

ويحمل خطاب الحرفيين المعاني القديمة لـ «الغريب» (الخارج عن العائلة أو عن الجيرة أو عن الطائفة) إلى جانب المعنى الحديث الأقل تفصيلاً من الأول . وتغيب لدى الفئتين النظرة الإيجابية إلى «الغرباء» . ويظهر لديهما النمطان السلبيان ، العدائي والاحتوائي ، مع أرجحية الأول . فالنمط السائد ، والأكثر تفصيلاً ، هو الخطاب الاحتوائي تجاه «الغرباء» ، الذي يدعو إلى ضبط وجودهم ومعاملتهم مثل ابن البلد ، أمام النظام والقانون ، وربما إلى التجنس ، ولكن بعد فترة من الاختبار .

والنمط الخطابي الاحتوائي تجاه «الغرباء» موجود لدى فئتي التجار والحرفيين ، ولكن من دون تطرف ، وينطلق من تخوف الفئتين من أطماع «الغرباء» بأرض الوطن ، وبحثهم عن هوية فيه[٢٩] . ويذهب إلى حد رفض دخولهم ، والدعوة إلى إبعادهم وإخراجهم من البلد ، ولكن لا يصل هذا الخطاب ، في عدائيته ، إلى حد الدعوة إلى «طرد» أو «قتل» أو «اضطهاد» «الغرباء» .

لا بد من التساؤل ، هنا ، لماذا تتميز فئتا صغار ومتوسطي التجار والحرفيين بنمط خطابي ، أشد سلبية وتقليدية وما قبل وطنية ، من النمط السائد لدى الفئات المهنية الاجتماعية الأخرى؟ ولماذا تترجح مواقفهما ، على المستوى

الاجتماعي الاقتصادي بين الخوف من المنافسة والدعوة إلى المشاركة ، والخوف من الاستغلال والاتهام بحيازة تأييد الفئات الشعبية الأمية (الفقيرة) أو أحياناً عكس ذلك معارضة الفقراء لهما؟ وكذلك لماذا يتردد المنتمون إلى هاتين الفئتين بين النزوع نحو تنظيم العلاقة مع «الغرباء» وتسويتهم أمام القانون والنظام واحتوائهم التدريجي ، وبين عدم القبول بهم والدعوة إلى إخراجهم من البلاد؟

إن ظروف الأزمة الاقتصادية ، التي تمس هذه الفئة أكثر من غيرها ، قد تولّد الشعور بالخطر ، بسبب طابع مؤسسة العمل الفردي الصغير والمنعزل ، وعدم انتماء أصحابها إلى مؤسسات نقابية أو مهنية حديثة أو اجتماعية (قرية ، عشيرة) ، تحمي هذه الفئات من الأخطار المحيطة بها .

الترجح بين الثقة بأن النظام والقانون قادران على ضبط «الغرباء» واحتوائهم ، وبين عدم الثقة بهم والدعوة إلى إخراجهم من البلد ، يعبِّر عن موقف هذه الفئات من الشرعية (ثقة/ عدم ثقة) وتردّدها بين الانفتاح المشروط على الآخرين ، والانغلاق على الذات .

الخاتمة

تكشف هذه الدراسة كيف برز ، في مجتمع متعدد الأديان والطوائف والانتماءات ، أثناء المرحلة الأولى من الحرب الأهلية اللبنانية[٣٠] ، خطاب معاد لـ «الغرباء» ، يحمله تيار شعبي لبناني هام . برز هذا الخطاب في نسب متعادلة ، لدى متكلمين من الطوائف الثلاث الرئيسية (سنّة شيعة وموارنة) وفي مختلف الأوساط المهنية ، ولدى الفئات المتوسطة والمتدنية الدخل . وكان أكثر حضوراً في المناطق الضاحوية والمدينية ، منه في المناطق الريفية . وهناك شرطان ، على الأقل ، لبروزه : أن يكون المسمون بـ «الغرباء» كثيري العدد ، وظاهري الحضور ، داخل البلد المعني . والشرط الثاني ، هو وجود حالة أزمة أو صراع داخلي ، يشارك فيه أو يؤثر فيه هؤلاء «الغرباء» . وإذا ما غاب أحد الشرطين ، لتراجع الخطاب المعادي لـ «الغرباء» ، وعاد إلى حالة الكمون (مثلما حدث ، مثلاً ، بعد خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان بعد ١٩٨٣) فإنه سيعود إلى الظهور في أول مناسبة ، يكتمل فيها الشرطان المذكوران[٣١] .

وقد تنوع هذا الخطاب ، واختلف إلى حد ما ، وفقاً لاختلاف انتماءات المتكلمين ، وحسب التدرج التالي في التأثير : الانتماء الطائفي ، ثم مكان الإقامة ، فالنشاط المهني ، فالسن . وعلى الرغم من هذين التنوع والاختلاف في الخطاب حول «الغرباء» ، فإن سمات الخطاب المشتركة أكثر وأهم من نقاط التمايز هذه ، وهي تؤكد على وجود خطاب لبناني مشترك (ولو أقلوياً ، من حيث النسبة العينية للمعبرين عنه) حول «الغرباء» ، يشدد حاملوه على وحدة البلد الداخلية ، عبر تحميل «العنصر الخارجي ، المقيم في الداخل» ، أي

«الغريب» ، كلياً أو جزئياً ، مسؤولية إثارة الحرب الأهلية في لبنان . ويحدد «الغرباء» حين يحددهم ، بجنسيات عربية متنوعة ، أكثرها «الفلسطينية» و«السورية» . إن اتهام «الغرباء» الترددادي ، الشبيه بالوسواس ، لعب ، بالنسبة إلى المتكلمين ، دور تأكيد لحمة «نحن اللبنانيين» ، ونفي انقسامهم الداخلي ، ومسؤوليتهم في الحرب . وتسير العمليتان في اتجاهين متعاكسين ؛ إذ كلما زاد اتهام «الغرباء» بإثارة الحرب ، تراجع ذكر دور «اللبنانيين» وانقساماتهم وخصوماتهم في استمرار هذه الحرب . فيلعب «الغرباء» ، في الخطاب هذا ، دور العنصر «الموحد» للذات الوطنية ، من طريق العداء ، ودور «كبش المحرقة» . ويحاول الخطاب المشترك تعبئة «اللبنانيين» ضدهم ، عبر «إستراتيجية» لبنانية ، هدفها إما احتواؤهم ، عبر التجنيس المشروط ، أو إقصاؤهم ، من طريق طردهم خارج المجتمع اللبناني .

وتأخذ «الغربة» ، في هذا الخطاب ، معاني عديدة ، تتراوح بين «الغريب» عن صلة الدم أو القرابة (هو المعنى الأوسع ، من حيث دائرة الإقصاء : أي كل من لا قرابة لي معه هو «غريب» عني) و«الغريب» عن الجيرة أو السكن ، و«الغريب» عن الطائفة والدين (جماعة العقيدة) وصولاً إلى «الغريب» عن الوطن ، وهو المعنى الأحدث والأضيق ، من حيث دائرة الإقصاء (أي «الغريب» اللامواطن ، أو المواطن الذي ينتمي إلى دولة أخرى) .

ويعبر الخطاب المشترك ضد «الغرباء» عن عدم تحديد الانتماء الطائفي والديني للفاعلين ، سواء في تعريف «الغريب» و«اللبناني» ، أو في عدم تسمية التجمعات الطائفية باسمها . أو أيضاً في النفي الجزئي أو التام لاشتراك القوى الطائفية في الحرب . ولكن على الرغم من هذا الرفض الكلامي ، فلقد بينت الدراسة ، ان الانتماء الطائفي للمتكلمين (المحقق معهم) ومكان إقامتهم ، هما العاملان الأشد تحديداً وتمييزاً لخطابهم حول «الغرباء» .

وفي هذا المجـال ، لا بد من الإشـارة إلى أن خطاب المتكلمين ، الموارنة والشيعة ، أكثر وضوحاً في تعريف «الغريب» ، وتحديد أهدافه ، من خطاب المتكلمين السنَّة ، الذي يبدو أكثر اختصاراً . إن الفئتين الأوليين من المتكلمين (موارنة وشيعة) تشددان على هوية «الغرباء» العربية ، وتحددان الأخطار الناتجة من حضورهم ، كـ «استلاب الوطن» ، و«تغيير النظام السياسي» و«إقامة نظام سياسي أحادي الطائفة» ، يستثني من صيغته الطوائف الأخرى . أما المتكلمون السنَّة ، فهم لا يذكرون هوية «الغرباء» العربية ، ولا هوية الدول المتهمة بمساعدتهم ، بل يكتفون بالإشارة إليها ، باستخدام لفظة غير محدّدة : «الخارج» ، ويعرفون «الغريب» بصيغة النفي ، نفي انتمائه إلى الوطن ، لأنه «غير لبناني» ، ولا يحملونه مشروعاً «سياسياً» ، يمس بالسلطة أو بالكيان الوطني .

يمكن تفسير هذا الاختلاف ، بين النظريتين ، بالعودة إلى مفهومي الأقلية والأكثرية ، مع العلم أنه ، كأي تفسير ، يحمل شوائب كثيرة . فإذا سلمنا ، من ناحية ، بأن المتكلمين ، الموارنة والشيعة ، ينتمون إلى طائفتين يمكن اعتبارهما من الأقليات الدينية والمذهبية ، إذا ما نظر إليهما على الصعيد العربي (لا اللبناني) ، ولاحظنا ، من ناحية أخرى ، أن المتكلمين السنَّة ، ينتمون إلى الأكثرية الإسلامية العربية ، لاستطعنا أن «نفسر» الفوارق بين الخطابين الأقلوي والأكثري حول «الغرباء» . فـ «الغرباء» يعني بهم الخطاب ، ضمناً أو علناً ، الفلسطينيين ، بالدرجة الأولى ، يليهم رعايا عرب ، من دول أخرى ، مقيمون في لبنان للعمل ، وهم ، في معظمهم ، ينتمون إلى الإسلام السني ، الأكثري في العالم العربي .

يمكن ، إذاً ، فهم تردد الخطاب السني في تحديد هوية «الغرباء» العربية ، كونهم ينتمون إلى الأكثرية نفسها على الصعيد العربي ، وهذا يفسر اعتدال

الخطاب السني اللبناني ، تجاه «الغرباء» وعدم اتهامهم «بالجرائم» العظمى في حق النظام أو الوطن ، وإنما ترجيح احتوائهم على طردهم .

أما الخطابان الماروني والشيعي ، كون حامليهما ينتمون إلى الأقليتين الدينيتين والمذهبيتين ، على الصعيد العربي ، فهما يعبران عن نزعة أكثر عدائية ، تجاه «الغرباء» ، نزعة الأقلية ، التي تخاف على كيانها وكيان وطنها ، تجاه ما تعتبره خطراً خارجياً ، مقيماً في الداخل ، يريد إقصاءها والحلول مكانها . فهي ترفض التعايش وتدعو للإقصاء ، وإن قبلت بالاحتواء ، فضمن شروط محددة وضيقة .

أما إذا أخذ ، في عين الاعتبار ، مستوى آخر من الواقع الاجتماعي اللبناني والعربي ، هو مستوى تكوين الجماعات وبناها الداخلية ، فيمكن أن نتقدم ، لفهم هذا الاختلاف ، بالتفسير التالي ، الذي أرجحه على الأول ، والذي يساعد ، في الوقت نفسه ، على تفسير مظاهر أخرى ، من تجنب «الآخر» ، أو العداء له ، الموجودة في المجتمعات العربية الأخرى . يمكن صياغة هذا التفسير السوسيولوجي على النحو التالي : إن العلاقات الاجتماعية الأولية (زواج ، إرث ، سكن) لدى كافة الجماعات العربية على أنواعها ، كالعائلة والقبيلة والعشيرة والملّة والطائفة والأمة ، لا تزال تتسم ، إلى حد كبير ، بطابع التوجه الداخلي ، أي تفضيل إقامة علاقات داخل الجماعة ، على إقامة علاقات خارج الجماعة (وهذا ما أطلق عليه علماء الأنثروبولوجيا علاقات التزاوج الداخلي (endogamie) إذ يفضل أعضاء الجماعة التزاوج ضمن العائلة أو القبيلة أو الملة أو الطائفة أو أبناء الدين الواحد ، على الزواج المختلط ، أي من خارج الجماعات المذكورة . ومع أن هذه البنية ، الموجهة إلى الذات الجماعية ، قد تراجعت ، بلا شك ، ولا سيما في التجمعات المدينية العربية ، التي عرفت ، بحكم التساكن ، حداً أدنى من الاختلاط ، إلا أن العقلية التي ترافقها ، عقلية تفضيل الأقرب ، والمماثل اجتماعياً ، على الأبعد والمختلف ، هذه العقلية ،

المنغلقة نسبياً ، لا تزال سائدة في أوساط واسعة من المجتمعات العربية ، ومنها المجتمع اللبناني ، قيد الدرس في هذا البحث . وتدفع هذه العقلية حامليها (سواء انتموا إلى أقليات أو أكثريات) إلى تفضيل «العيش مع ذويهم أو بين بعضهم بعضاً ، على العيش مع الآخرين»[٣٢] ، على أنواعهم ، واستطراداً ، تؤدي بهم هذه العقلية إلى الميل نحو اعتبار هؤلاء «الآخرين» «غرباء» ، في أسوأ الحالات ، أي في حالات الأزمات والصراعات الداخلية ، واعتبارهم «ضيوفاً» في أحسن الحالات ، كحالات الاستقرار الاجتماعي والازدهار .

وإذا طبقنا هذه الخلفية الأنثروبولوجية على نتائج البحث ، يمكن أن نفسر التنوع في الخطاب ، حول «الغرباء» على النحو التالي : يختلف هذا الخطاب ، من حيث النوعية والحدة ، باختلاف درجة الابتعاد أو المسافة بين حامليه ، أي المتكلمين ، و«الغرباء» ، موضوع خطابهم . والمسافة ، هنا ، هي درجة اختلاف انتماءات الفريقين وهي تتدرج من الدائرة الاجتماعية الأصغر إلى الأوسع ، من الانتماء إلى العائلة ، ثم الطائفة أو المذهب ، ثم الدين ، ثم الوطن[٣٣] .

ففي حالة المتكلمين من الطائفة المارونية ، تبلغ هذه المسافة حدها الأقصى ، إذ تختلف انتماءات الفريقين ، ما عدا الانتماء العربي (الذي لا يعترف به بعض المتكلمين ، على الرغم من مشاركتهم في اللغة والثقافة العربيتين) . ولذا ، يبدو الخطاب الماروني ، حول «الغرباء» متطرفاً في اتجاهه الإقصائي ، الرافض لوجودهم ، وحذراً جداً (واضعاً لشروط ضيقة) في اتجاهه الاحتوائي ، وفائق المثالية في اتجاهه الإيجابي الإنساني .

أما في حالة المتكلمين اللبنانيين من الطائفة السنية ، فتبلغ المسافة بينهم وبين «الغرباء» ، موضوع كلامهم ، حدها الأدنى ، إذ ينتمي الفريقان إلى الدين والمذهب والقومية نفسها ، المعترف بها ، ولا يختلفان ، إلا في الانتماء العائلي والوطني . فيأتي كلامهم على «الغرباء» معتدلاً وخجولاً ، ولا يتهمون

هؤلاء بتهديد الكيان أو النظام أو الوجود ، بل يدعون إلى احتوائهم ، ضمن «دولة قوية» ، «تطبق القانون على الجميع» . ويأتي خطاب المتكلمين الشيعة ، في الوسط ، بين النمطين السابقين ، إذ إن المسافة بينهم وبين «الغرباء» مسافة اختلاف مذهب وانتماء وطني وعائلي ، أما الدين ، فهو مشترك ، ويقع خطابهم ، من حيث النزعة العدائية ، في الوسط ، أقل تطرفاً في نزعته العدائية الرافضة ، لكنه متشائم ، لا يرى إمكانية للتعايش والاحتواء .

وأخيراً ، يبدو هذا الخطاب اللبناني ، المعادي لـ «الغرباء» أقرب إلى النزعة السلبية تجاه الآخر (héterophobie) التي لا تزال تتسم بها معظم المجتمعات الإنسانية ، بدرجات متفاوتة . إلا أنه لا يتسم بالطابع العنصري (racisme) ذلك أنه خال من عقدتي التفوق والاحتقار تجاه «الآخرين» (الأجانب) التي يتميز بها الخطاب والسلوك العنصريين .

الهوامش

(١) لا بد من الإشارة إلى أنه صعب على المحققين الوصول إلى المناطق الساخنة ، آنذاك ، كالشوف والشريط الحدودي وبعض قرى الجنوب ، الأمر الذي يفسر النقص النسبي في عدد أفراد العينة ، من الطائفتين الشيعية والدرزية ، مقارنة بوزنهم الفعلي في توزيع السكان الطائفي في لبنان .

(٢) أنظر : M-F Baslez, **L'étranger dans la Grèce antique.** Paris, ed. Realia les Belles Lettres ب .ت .

(٣) وقد استعنا لتحديد شكل الخطاب عن «الغرباء» بما أسماه Benveniste «بجهاز القول» أو الصياغة (appareil d'énonciation) وهي مجموعة المؤشرات اللغوية ، التي يستخدمها المخاطب لتوجيه (modulation) كلامه ، كأسماء الإشارة ، والضمائر ، والظروف ، والحال ، وأزمنة الأفعال وأشكالها ، وحروف العلة والجر . . .

(٤) قد يوجد تفسير آخر ، يمكن استنتاجه من دراسة A. Abel «الغريب في الإسلام الكلاسيكي» ، الذي يعتبر أن («الغرباء» ، في ظل السلطة الإسلامية ، هم الأقليات ، أهل الذمة ، كاليهود والمسيحيين) . لا شك أن طائفة الروم الأرثوذكس ، عانت هذا الوضع ، لتواجدها الدائم الأقلوي في المدن العربية ذات الأكثرية السنية . فكيف يمكن أن تعتبر وتسمى «غرباء» ، الوافدين إلى المدن ، الذين ينتمون بمعظمهم إلى الأكثرية الإسلامية ، في حين أن أعضاء هذه الطائفة ، الأقلية عاشوا ، تاريخياً ، وضعاً شبيهاً بوضع «الغرباء» أو الضيوف المقبولين ، ولكن غير المنتمين إلى أمة المسلمين . هذا إذا قبلنا بتفسير A. Abel ، الذي لدينا تحفظات عديدة تجاهه .

Armand Abel, "L'étranger dans l'Islam classique" **in l'Etranger Foreigner** (2 vol.) Paris, Dessain & Tobra, 1984. p. 331-351.

(٥) وقد أسفرت دراسة ، عن نظرة المواطنين إلى العمالة الوافدة ، في الأردن ، (ومعظم هؤلاء من العرب ٨٣٪) أيضاً عن علاقة عكسية ، بين متغير السن ووجود علاقات

اجتماعية مع الوافدين : فكبار السن ، هم الأقل علاقة بالوافدين . وصغار السن ، أجابوا بأن علاقتهم بهم أكثر من المتوسط .
أنظر : أحمد ظاهر وأحمد فهمي ، «الآثار الاجتماعية للأيدي العاملة الوافدة ، إلى الأردن» ، **المستقبل العربي** ، أيار/ مايو ١٩٨٧ .

(٦) باستثناء موظفي القطاع العام ، الذين لا تزيد نسبتهم على ٢١٪ من مجمل المحقق معهم ، العاملين في هذا القطاع ، مهما كان مستواهم الاجتماعي متوسطاً أو موسراً .

(٧) سيقتصر التحليل على المقابلات مع أفراد الطوائف الثلاث الرئيسية ، المارونية ، الشيعية والسنية ، نظراً إلى كونها تشكل نحو ٧٥٪ من مجموع المقابلات (جدول رقم (١)) .

(٨) تظهر كلمة «غريب» أكثر من جمعها «غرباء» في الخطاب ، بنسبة ٢٪ . وقد تم تحليل كل التعابير التي ترد في الخطاب ، «إنسان غريب» ، «ناس غرباء» ، «رجل غريب» ، «شخص غريب» ، «عناصر غريبة» ، «الطرف الغريب» ، «الوجود الغريب» ، «اليد ، الأيدي الغريبة» ، «الرِّجل الغريبة» ، «الاحتلال الغريب» ، «الجيش ، الجيوش الغريبة» ، «القوى الغريبة» ، «الحواجز الغريبة» .

(٩) نستعمل كلمة خطاب (Discours) لنشير إلى كل ما نطق به المتكلمون عن «الغرباء» ، بغض النظر عن الذي يتكلم . فالخطاب عن «الغرباء» ، هو كل ما قيل عنهم في مجموع المقابلات .

(١٠) أنظر جورج سيمل ، تكون البيئة المدنية ، Georg Simmel.
Naissance de L'écologie urbaine. Paris, Edit Aubier-Montaigne. 1984, p. 173.

«إن المرحلة الأكثر بدائية ، في التشكيلات الاجتماعية ، والتي نجدها في الماضي كما في الحاضر ، هي وضع مجموعة صغيرة محصنة ضد الجيران والغرباء ، أو ضد المجموعات الأخرى ، المناقضة لها بصورة دائمة . وكلما زاد هذا التناقض ، توثقت العلاقات داخل المجموعة» . وأيضاً ، سيمل ، النزاع (le conflit) Paris, Circé, 1992 ، «إن الشعور السلبي تجاه «الآخر» ، يواكب أي جماعة ، ويساهم في تأسيسها» .

(١١) يتحدد معنى الغرابة في المجتمعات الأفريقية من عدم الانتماء إلى القبيلة أو الإثنية ethnie) أنظر : W.A. Shack & E.P. Skinner, **Stranger in Africa" Societies.** (الغرباء في المجتمعات العمرانية) Berkely, Univ. of California Press, 1979 .

(١٢) Pierre Paraf, **le Racisme dans le monde**. Paris, Payot 1981.

(١٣) J. Pitt-Rivers, **Anthropologie de l'honneur**. Paris, le Sycomore, 1983.

(١٤) المرجع السابق ، الفصل الخامس ، قانون الضيافة ، ص١٥٣ ـ ١٧٤ .

(١٥) محمد أبي سمرا ، ظاهرة الأخوين الرحباني ـ فيروز . دبلوم في علم الاجتماع الثقافي ، بيروت ، الجامعة اللبنانية ، معهد العلوم الاجتماعية ـ الفرع الأول ، ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥ ، ص ١٣٩ ـ ١٤٢ . يلخص المؤلف سمات شخصية «الغريب» عن القرية ، في مسرح الرحباني ، بالوجهين التاليين : الوجه الأول ، هو «الغريب» عدو المجتمع : صياد متشرد ، رجل عصابات وقاطع طرق ، يعتدي على القرية ، ليسرق غلتها . إنه يتوق إلى التوطن في القرية ، ولكن لا يستطيع أن يستقر . والوجه الثاني ، هو البائع المتجول . إنه «غريب» بلا اسم ، بلا وطن . وهو لا يألف الإقامة والاستقرار والتوطن ، والقرية تخشى أن يقوم بأعمال تخريبية .

(١٦) Armand Abel "L'étranger dans l'Islam Calssique", in **L'Etranger-Foreigner,** (2 vol.) Paris, Dessain & Tobra, 1984, p336-350.

(١٧) تعبر كلمة stanger ، في اللغة الإنكليزية ، عن «الغريب» ، وكلمة foreignerعن «الأجنبي» . أما في الفرنسية ، فكلمة étranger تعبر عن الاثنين معاً .

(١٨) يحتل البعد الاقتصادي ـ الاجتماعي حيزاً هاماً في وصف «الغرباء» أو «الأجانب» ، في المجتمعات الأوروبية الغربية ، بعكس صورتهم في الخطاب اللبناني . أنظر المجلة الفرنسية ، المختصة في علم المفردات "mots" ، في عددها ٨ الخاص بـ L'Etranger «الغريب أو الأجنبي» ، ١٩٨٤ .

(١٩) في مجلة **Commentaire** "L'étranger dans la Cité" (الغريب في المدينة) ، Jean Beachler ، العدد ٣٣ ، المجلد ٩ ، ربيع ١٩٨٦ (باريس) ص ٨١ .

(٢٠) حسب تعبير Georg Simmel ، الذي ينعت بأعداء الداخل الفقراء والمجرمين ، والمختلين عقلياً . أنظر : Georg Simmel "Degressions sur l'étranger" in: **Naissance de l'écologie urbaine**, Paris, Aubier-Montaigne, 1984.

ـ أنظر أيضاً Freddy Raphaël «الغريب والمنبوذ ، في كتابات ماكس فيبير وجورج سيميل» في **Archiev de Sciences Sociales des Religions**, Tome 61, avril-Juin 1986, p. 63-83.

P. Fiala, "Le consensus partiotique, face cachée de la xénophobie.
أنظر «الإجماع الوطني ، هذا الوجه المستتر لكره الأجانب» ، في مجلة Mots (باريس) العدد ٨ ، ١٩٨٤ ، ص ٢٤٠ .

(٢٢) V. Cotesta "les images de l'autre dans le conflit ethnique" (صُور الآخر في النزاع الإثني) ورقة مقدمة إلى مؤتمر الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، حول «صورة الآخر» ، الذي انعقد في حمامات ـ تونس ، ٢٧ ـ ٣٠ آذار/ مارس ١٩٩٣ .

(٢٣) المعني بالشكل الخطابي هو التسلسل المنطقي ، طريقة الكلام ، كيفية ظهور المخاطب في خطابه ، وصيغ الأفعال .

(٢٤) أنظر P. Fiala ، مصدر سابق ، ص ٣٥ .

(٢٥) أنظر P.A. Taguieff, "Les présuppositions définitionnelles d'un indéfinissable le racisme".

(الافتراضات التعريفية لمفهوم يصعب تعريفه) في مجلة Mots (باريس) ، العدد ٨ ، ١٩٨٤ ، ص ٧٧ ـ ١٧٩ .

(٢٦) نعني بتأثير التقاطع (Correlation) ، إذ نجد أن هناك علاقة بين مواصفات المحقق معهم الخمسة ، ومحتوى ما يقولونه . لا نجزم بأن هذه العلاقة هي سبب ذلك ، لذا فضلنا كلمة تقاطع .

(٢٧) تبحث تقنية تحليل المضمون الكمي ، في تكرار نسبة ورود الكلمة أو الفكرة (فئة التحليل catégorie) في الخطاب . أما ما نقصده بحجم الخطاب ، فهو مدى اتساع حقل دلالة لفظتي «غريب غرباء» ، في المقابلات ، أي مدى بلورة الأفكار وتفصيلها ، بغض النظر عن محتواها .

(٢٨) التأثير نسبي ومحدود ، وقد ذكرنا سابقاً أن القواسم المشتركة بين الخطابات ، أي الخطاب المشترك ، أهم من التنوع تحت تأثير انتماء وأصل وإقامة ومهنة وسن المحقق معهم . وإنما هذه المتغيرات تجعل الخطاب المشترك متنوعاً . وحاولنا تحديد هذا التنوع بمعالجة كل متغير على حدة .

(٢٩) إن انقسام اقتصاد الدول العربية النفطية ، إلى اقتصاد ريعي ، يضم معظم المواطنين واقتصاد إنتاجي ، يعتمد أساساً على الوافدين «جعل من الصعب على هذه المجتمعات قبول تذويب الوافدين (من العرب) وانصهارهم فيها . فالوافد ، مهما كانت فترة إقامته في هذه الدولة ، ليس من حقه الاندماج في هذا المجتمع الجديد . لكنه غريب على المجتمع الذي يقيم فيه . وكلما تزايدت الثروة النفطية ، تزايدت القيود على الوافدين» . أنظر هذا التأثير الفائق للعامل الاقتصادي في دراسة حازم الببلاوي ، «الدولة الريعية في الوطن العربي» ، **المستقبل العربي** ، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٧ .

(٣٠) مرحلة ١٩٧٥ ـ ١٩٨٢ ، أي قبل خروج المقاومة الفلسطينية .

(٣١) يمكن أن نذكر ، كمثال على ذلك ، موجة الاحتجاج وبوادر الأزمة والكلام على العودة إلى حالة الحرب الأهلية ، التي أثارها الوزير وليد جنبلاط في الأوساط اللبنانية ، عندما أعلن ، في صيف ١٩٩٤ ، عن مشروع «إعادة إسكان» اللاجئين الفلسطينيين ، الذين شردتهم الحرب الأهلية ، في منطقة سكنية ، في جنوب لبنان .

(٣٢) «الآخرون» هم الذين لا ينتمون إلى الجماعة الأولية .
(٣٣) أما فيما يتعلق بتدرج تأثير الانتماءات المذكورة في النظرة إلى «الغرباء» والسلوك تجاههم ، فيرى أحمد ظاهر وأحمد فهمي في دراستهما حول «الآثار الاجتماعية للأيدي العاملة الوافدة إلى الأردن» ، المذكورة سابقاً . أن تغلب الانتماء القبلي والعائلي على الانتماء الوطني وضعف علاقات المواطنين فيما بينهم ، يقللان من تأثير عامل التماثل الديني واللغوي في النظرة إلى «الغرباء» وإقامة علاقات اجتماعية بهم : «ففي مثل هذه المجتمعات ، كالأردن مثلاً ، حيث ينحصر ولاء الأفراد على العائلة والقبيلة ، وينحصر داخلها الزواج والعلاقات الاجتماعية ، يصعب على العاملين الوافدين ، وإن كانوا يتحدثون اللغة العربية ويدينون بالإسلام ، أن يتكيفوا اجتماعياً . ينظر إليهم المواطن الأردني على أنهم غرباء ، وعلاقاته بهم محدودة» ، ص ١٩ .

المراجع

- Abel, A.: "L'Etranger dans l'Islam classique", in **L'Etranger-Foreigner** (2 vol.). Paris Dessain & Tobra, 1984.
- Association des Socioloques Arabes-Congrès International sur **"L'Image de l'Autre"**, 27-30 Mars 1993/Tunisie-Hammamat (à paraître).
- Baechler, J.: "L'Etranger dans la cité" in **Commentaire,** (Paris) No. 33, vol. 9. printemps, 1986.
- Baslez, M-F.: **L'Etranger dans la Grèce antique,** paris, et. Realia les Belles Lettres. n.d.
- Benveniste, E.: **Traité de linguistique générale**, Tome II.
- Cotsta V.: "les images de l'autre dans le counflit ethnique", Congrès de l'Association des Socioloques Arabes **"L'Image de l'autre"**, Tunisie, Hammamat, 27-30 Mars 1993.
- "L'Etranger", revue **Mots** (Paris), No. 8, 1984.
- Fialia, P.: "Les consensus patriotique face cachée de la xénophovie", in **Mots** (Paris), No. 8, 1984.
- Paraf, P., **Le racisme dans le monde.** Paris Payot, 1981.
- Pitt-Rivers, J.: **Anthropologie de l'honneur**. Paris, le Sycomore, 1983.
- Raphael, F.: "L'étranger et le paria dans les écrits de M. Weber et G. Simmel in **"Archives de Sciences Sociales des Religions"**, Tome 61, Avr-Jun 1986.
- Shack W. A. & Skinner E.P.: **Strangers in African Societies**. Berkely, Un. of Calofornia Press. 1979.
- Simmel, G.: **Naissance de l'écologie urbaine**. Paris, Aubier-Montaigne, 1984.

- Taguieff, P.A.: "Les présuppositions définitionnelles d'un indéfinissable: le racisme" in **Mots**, (Paris) No. 8, 1984.

ـ محمد أبي سمرا : **ظاهرة الأخوين الرحباني ـ فيروز** ، دبلوم في علم الاجتماع الثقافي ، بيروت ، الجامعة اللبنانية ـ الفرع الأول ، ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥ .

ـ حازم البيبلاوي ، «الدولة الريعية في الوطن العربي» ، في مجلة **المستقبل العربي** ، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٧ .

ـ أحمد ظاهر وأحمد فهمي ، «الآثار الاجتماعية للأيدي العاملة الوافدة إلى الأردن» ، **المستقبل العربي** ، أيار/ مايو ١٩٨٧ .

الفهرس

منذ اندلاع الحرب اللبنانية في ١٩٧٥، واللبنانيون، أو بعضهم، يتحدثون عن «الغرباء». وقد وُجد من ينسب إلى هؤلاء قدرات أسطورية تتعدى افتعال الحرب وإطالتها.

فمن هو «الغريب» في لغة اللبنانيين وفي خطابهم؟ وكيف تتوزّع دلالات المصطلح ما بين طوائف لبنان وجماعاته؟

هذا العمل، إذا كان يخاطب حالة محددة هي اللبنانية، فإن انفجار الهويّات والتمايز بين الجماعات مما يتصف به زمننا الراهن، يعطيه أهمية أبعد.

ISBN 1 85516 506 6

